الحضارة والتمدن الإسلامي
بأقلام فلاسفة النصارى
٢
دكتور
عبد المتعال محمد الجبري
الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين

دكتور
عبد المتعال محمد الجبري

الحضارة والتمدن الإسلامي بأقلام فلاسفة النصارى

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وسائر المرسلين ، والصحابة أجمعين .

وبعد ..

فهذه الدراسة كنت أعددتها للذين يجهلون ما للإسلام من حضارة عظيمة ، بين المسلمين وغير المسلمين ، وخشية أن يقال إنها كلمات يهتف بها المسلم لدينه جعلتها مقتطفات خطتها أقلام فلاسفة النصارى الغربيين فى بلاد فيها حرية الكلمة مكفولة ، وقد وردت فى أطر دراسات علمية من ذوى التخصص ، بعيداً عن آفاق المجاملات .

وهى دراسة تكميلية لما كتبه « چورچى زيدان » بعنوان « التمدن الإسلامى » ، وهى كشف للمجهول من تاريخ حضارى مطموس فى بلادنا الشرقية .

وقد تناولت فى هذه الدراسة كل ما يهم الدارس فى غير إطناب وجعلتها فى فصول خمسة :

الفصل الأول : الدين والمدنية .

وفيه يتضح أنه أساسها وأنه ذو دور حضارى . وأجبت عن سؤال مما أجابه الغربيون عن « هل يتفق الإسلام والمدنية الحديثة » ؟ وعن عوامل انتشار الإسلام ، ومنزلة العلماء فى الإسلام ، وعن ظواهر التمدين وحقيقته .

الفصل الثانى : المظاهر الحضارية .

وفيه يتبين أن الخُلق الحميد عنصر حضارى ، وأن الحضارة الإسلامية ذات تأثير حتى اليوم ، فمبادئ الحرية والعدالة والمساواه ، ورفض التبعية والتقليد

والاهتمام بالعلوم الكونية ، والتخطيط للحياة وللمدن والقرى والطرق التجارية ، وترقية الزراعة والصناعة والتجارة ، واللغة والأعياد والألقاب وآداب الكتابة كلها فى العالم قاطبة - والغرب خاصة - وليدة الصلة بالإسلام .

الفصل الثالث : تحضير الإسلام للغرب .

وفيه تناولت بأقلام الغرب بيان حال الغرب عند الفتح الإسلامى ، وترجمة العلوم العربية إلى اللغات الأجنبية وبالعكس ، وكيف واجه العرب المدنية اللاتينية ؟ وما يقال عن تعارف الإسلام والمسيحية وعن ممالك الإسلام التى كانت واحات للحرية ، ثم كيف صوَّر الغربيون الأمناء حرب الحقد المسيحى للإسلام والمسلمين .

الفصل الرابع : الإسلام والعلم

وفيه قال أولئك الباحثون النصارى أن الإسلام هو الذى منح العلوم لأوروبا بكرم وسخاء ، وليست إيطاليا . فقد منحوها ما لديهم من رياضيات وملاحة وكشوف جغرافية وفنية ، ولا عجب أن كان العرب أرباب الاختراع فى كل العلوم . فالدين هو منشىء العلوم الكونية بطبيعته التى لم يطمسها الحَجْر الكنسى الذى يفصل بين الدين والدنيا . فمن العرب كانت أفضل دراسات الطب ، وكان من أعمال البيمارستان إجراء البحوث الطبية والصيدلانية ، وكان لبناء المستشفيات تصميم خاص ، يبدأ باختيار الموقع الصحى . وهناك تنوع تعليمى ، فالكتاتيب ، ثم حلقات المسجد ، ثم الحلقات الخاصة والمناظرات . وكان هناك تسجيل دقيق للحاضرين حلقات المسجد ، ورحلات علمية ، ومكتبات تؤدى فيها خدمات لم يُسبق وجود مثلها . حتى تطورت المكتبات إلى مؤسسات .

وقد احتوت الثقافة الإسلامية ثقافة اليونان فأصلحت ما كان خطأ وأضافت ما يحسن الانتفاع بذلك التراث .

الفصل الخامس : دين نهضة وأدب .

وفيه بيَّن هؤلاء الغربيون أن الإسلام ضد الجمود ، ولهذا كانت حركات التجديد الدينى دليلاً على ذلك ، فظهرت حركة الإخوان عام ١٩١٠ بالسعودية فكان ثمارها الحكم طبقاً للتوجه الوهابى ، وظهرت حركة الإخوة السنوسية التى صحبتها نزعة الجهاد ، كما ظهرت حركة الإخوان المندية .

ويقابل هذه الحركات الجهادية حركات هدَّامة هى « البابية » ثم « البهائية » التى قاومها الإخوان المسلمون فكرياً .

ولما كان الأدب - شعراً ونثراً - مظهر حضارى يتواكب والفكر المثقف والمشاعر اليقظة ، فقد كان لهما ظهور بارز فى المشرق والمغرب . وكان لهما تأثير على الأدب الأوروبى بعامة ، وعلى الأسبانى والبرتغالى بخاصة .

وإنك لتجد حتى اليوم كثيراً من الكلمات ذات أصل عربى ، بل وكثيراً من العادات الأسبانية والريفية لها نظيرها فى شمال إفريقيا ، كما جاء فى حوار أقامه الشيخ الفضيل الورتلانى مع الجنرال فرانكو يوم كان حاكم أسبانيا .

والحق أقول : إن العالِم الجهبذ يحترم نفسه ويتحرى الحقائق العلمية ، فهى فوق الأهواء والطائفية والمذهبية ، يوصف صاحبها بأنه شريف الكلمة صادقها ، جرىء القلب ذو عظمة يتميز بها بين قومه .

اسأل الله أن ينفع بهذه الدراسة كل قارىء وباحث ، وأن يثير بها همم الكسالى ، ويجمع بها شمل الوطنيين . فالإسلام شرف العروبة وأهم مقوماتها مهما كان الانتماء الدينى .. والله الموفق ، وهو المستعان .

د . عبد المتعال الجبرى

* * *

الفصل الأول

الدين والمدنية

- الدين أساس المدنيات .
- أهمية الدين للحضارة .
- التربية الدينية حتمية وشاملة .
- الإسلام والمدنية الحديثة .
- عوامل انتشار الإسلام .
- منزلة العلماء فى الإسلام .
- النداءات العالمية .
- أثر الدين الإسلامى فى الإنجازات الحضارية .
- سمو التشريع الإسلامى .
- حضارة العرب فى الجاهلية .
- أثر الإسلام فى حضارة العرب .

الدين والمدنية

● الدين أساس المدنيات :

قال « هربرت سبنسر »[1] : « إن آداب الأمم وفضائلها ، التى هى قوام مدنيتها مستندة كلها إلى الدين ، وقائمة على أساسه ، وإن بعض العلماء يحاولون تحويلها عن أساس الدين ، وبناءها على أساس العلم والعقل . وإن الأمم التى يجرى فيها هذا التحويل ، لا بد أن تقع - فى طور التحويل - فى فوضى أدبية لا تعرف عاقبتها ، ولا يُحدَّد ضررها » .

وقال للإمام محمد عبده فى حديث له معه : « إن الفضيلة قد اعتلّت فى الأمة الإنكليزية وضعفت فى هذه السنين الأخيرة ، من حيث قوى فيها الطمع المادى » .

ونحن نعلم أن الأمة الإنجليزية من أشد أمم أوروبا تمسكاً بالدين ، مع كون مدنيتها أثبت وتقدمها أعم ، لأن الدين قوام المدنية بما فيه من روح الفضائل والآداب .

على أن المدنية الأوروبية بعيدة عن روح الديانة المسيحية وهو الزهد فى المال والسلطان ، وزينة الدنيا . فلولا غلبة بعض آداب الإنجيل على تلك الأمم لأسرفوا فى مدينتهم المادية إسرافاً غير مقترن بشىء من البر وعمل الخير ، وإذن لبادت مدنيتهم سريعاً .

ومَن يقل : إنه سيكون أبعدها عن الدين أقربها إلى السقوط والهلاك لا يكون مفتاتاً فى الحكم ولا بعيداً عن قواعد علم الاجتماع .

وقال « چوستاف لوبون » : إن أهم عناصر الحضارة العربية الإسلامية هى الدين واللغة والعلوم . وكلها لا تزال حية إلى اليوم .

ثم قال : ولا شك أن العرب هم أول مَن علّم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين .

* * *

(١) المنار : الجزء ١١ - المجلد ١٢ - ص ٨٠٥ - ٨٠٦ .

أهمية الدين للحضارة

تحدث « ول ديورانت » عن إيطاليا بعد ما سقطت تحت أقدام القوط فى الحرب القوطية (٥٣٦ - ٥٥٣ م) .

واضطربت الحال الاقتصادية وحلّت بها الفوضى وتدهورت النظم السياسية ، ولم يبق فى روما نفسها سلطة مدنية عدا سلطة مبعوثى الإمبراطورية يؤيدهم تأييداً ضعيفاً جنود بعيدون عنهم لا يتقاضون مرتباتهم . ولما انهارت السلطات الدنيوية على هذا النحو بدا لكل ذى عينين ، وللأباطرة أنفسهم أن لا حياة للدولة إلا ببقاء النظام الدينى . ولهذا أصدر « جستنيان » فى عام ٥٥٤ م ، مرسوماً يطلب فيه أن يختار الأساقفة والرجال المشهورون فى كل ولاية الأشخاص اللائقين الصالحين لتصريف شئون الحكومة المحلية [١] .

ويؤكد « برديف » أنه : « لا يمكن أن يقوم المجتمع الكامل ، وأن تستوى الثقافة الكاملة بدون حياة روحية حقيقية أى بدون انبعاث دينى » [٢] .

* *

● التربية الدينية حتمية وشاملة :

ثبت أن التربية الغربية لا زالت تتعثر فى طريق بناء الشخصية السوية ، لأنها تخاطب العقل ولا تخاطب الفطرة ، كما تبين الاحتياج إلى التربية الدينية التى تحرك الأحاسيس والمشاعر من داخل الإنسان فيقوم على أساسها سلوك مستقيم ، كما فى حديث الرسول ﷺ عن القلب : « ألا وإنّ فى الجسد مضغة

---

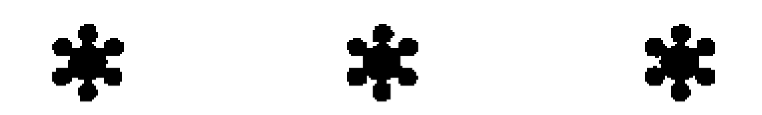
(١) قصة الحضارة : ٣٤٢/٤

(٢) الإسلام وتحديات العصر - الطبعة الثانية - ص ١٤١

إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله » - وكما فى الآية الكريمة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (١) .

وفى هذا يقول العالِم التربوى الحُجّة فى هذا التخصص « چيمس دوس » : « إن الدين شىء يؤثر قبل كل شىء فى هذا الشعور والإرادة ، وفى الوجدان والنزوع » .

ثم يتحدث عن عزل التربية الدينية فى المدارس عن باقى المواد ، وجعلها مادة أكاديمية فيقول : « إن من السخرية حقاً أن نضع فى الجدول المدرسىّ مادة اسمها الدين ، ثم نغمض أعيننا فى اطمئنان ، ونروح فى سبات عميق ، كأننا قد أدينا مهمتنا ، لا ينبغى أن نقنع بأن يكون الدين مادة إلى جانب المواد الأخرى ، بل أن يكون روحاً فيّاضة فى قوة وتوثب ، يطبع المنهج كله ، والحياة المدرسية ، والعمل المدرسى بجميع جوانبه ومجالاته ، بحيث تتهيأ الفرص الطبيعية المواتية لتلاميذنا حتى يشبوا وهم يقدمون خضوعهم وولائهم لله من تلقاء أنفسهم . وعن طيب خاطر » (٢) .



---

(١) الرعد : ١١

(٢) الدكتور عجيل النشمى : مقال التربية والفطرة - القبس : ١٩٨٥/٣/١٩

الإسلام والمدنية الحديثة (١)

إنى اخترت موضوع البحث فى الإسلام لأول مرة فى مؤتمر إفريقيا الشمالية لسببين :

الأول : إن المسألة الإسلامية هى مركز دائرة جميع المسائل فى إفريقيا الشمالية وذلك لأن هذه المسألة مهمة فى إفريقيا أكثر منها فى البلاد الإسلامية الأخرى ، إذ كان بين الإسلام والنصرانية على شواطىء البحر الأبيض المتوسط نضال قديم ، وما زال أثره باقياً فى القلوب .

والثانى : لأننا نحن الفرنسيين نعيش مع المسلمين فى تونس والجزائر ونحن مضطرون إلى الاختلاط بأهلهما لارتباطنا معهم بمصالح دائمة . ويجب أن نضيف إلى هذا الاعتبار اعتباراً آخر أكبر منه شأناً وأعم فائدة وهو أن ظنون الغربيين بالأمم الأخرى قد بدأت تتغير تماماً ، وأذكر أننى كنت أسمع وأنا يافع أن الأمم الآسيوية لا تقوم لها قائمة ، وأنها ستبقى رازحة تحت أعباء الانحطاط والجمود ، وفى الغالب كانوا يلصقون التهمتين معاً بها ، على ما فيهما من التناقص ، إذ حينما توجد حركة تأخر لا بد وأن تتبعها حركة تقدم . وقد كان من الأمور التى لا نزاع فيها أن الصين أمة جامدة وأن اليابان أمة ليس لها إلا مدنية سطحية وأن الهند لا يمكن أن تصلح شئونها . وكانوا يتهمون الإسلام بهذه التهم نفسها ، وإن الذين هم فى سن موافقة يذكرون أن الغربيين كانوا يرددون نظرية مؤداها أن المسلمين فى جمود تام بسبب اعتقادهم فى التوكل والقضاء والقدَر ، ولست فى حاجة إلى القول بأن هذه التهم التى كانت تجسمها

---

(١) خطبة لمسيو « رينيه ميوليه » ألقاها فى مؤتمر إفريقيا الشمالية المنعقد فى باريس من عهد قريب ، ونشرت فى المجلة الاستعمارية الفرنسية وترجمتها بعض الجرائد المصرية بالعربية فآثرنا تلخيصها لقراء المنار لما فيها من الحقائق والإنصاف .

كبرياء الغربيين ، قد تبين فسادها ، فإن المدافع التى أطلقت فى « موكدن » دوت فى أقاصى آسيا ، وأصبحت الأمم التى كنا حكمنا عليها بالموت ، والجمود يقظة نامية ، سواء أكانت فى الصين أو الهند الصينية أو الهند الإنكليزية أو فى إيران التى أخذ أهلها يطلبون دستوراً ، وها هى الآستانة ظهرت فيها حركة أهلية أدهشت العالم بأجمعه ، وما كان يخطر ببال طلبة مدرسة العلوم السياسية أنه سيطرأ تغيير على برنامج دراستهم ، وهو الأمر الذى أصبح لا بد منه الآن بعد أن تغيرت المسألة الشرقية ودخلت فى طور جديد .

وإننا إزاء هذا الانقلاب الذى حصل لا نجد بُداً من التساؤل عن الجمود الذى وصفوا به الإسلام ، إذ قد يكون شبيهاً بتهمة الخمول التى ألصقوها باليابان وما لبثت أن اضمحلت وظهر بطلانها !!

وإنى لا أريد أن أذكر انتشار الإسلام ، لأنه هو الدين الوحيد الذى ينتشر ويزداد أهله بسرعة فى آسيا وإفريقيا ، على حين أن الأديان الأخرى بقيت واقفة عند حد محدود لا تتجاوزه البتة ، وقد أصبحت هذه المسألة لا نزاع فيها ، ولكن ماذا تقولون إذا أثبتُّ لكم أن الإسلام شرعٌ يطبق العلوم الحديثة ويستفيد منها ؟ ومن ذلك أنه أنشأ بقوته الذاتية وبالمهندسين المسلمين ذلك الخط الحديدى العظيم الممتد بين دمشق والمدينة المنورة الذى يبلغ طوله . ١٣ كيلو متر !!

وماذا يقول اليوم فطاحل الفلاسفة الذين قالوا : إن أهل الإسلام مصابون بنوع مخصوص من أنواع مرض النوم ؟ ماذا يقولون الآن إذا علموا أن المسلمين تبرعوا بمقدار ثمانين مليوناً من الفرنكات مما أنفق عليه ؟

ثم للتقريب بيننا وبين المسلمين طريقتان :

١ - الطريقة المباشرة :

علينا أن نفتح القرآن وكتب السُنَّة ونستخلص منهما النصوص التى تثبت أن المؤمنين الصادقين فى كل عصر يهشون للعلوم ويقبلون عليها . منذ عهد غير

بعيد جاءنى كتاب من أحد المسلمين الجزائريين وهو السيد « عبد السلام ابن شعيب » فرأيت فيه بعض تلك النصوص مثل : « الحكمة ضالة المؤمن ينشدها أنّى وجدها » و « اطلبوا العلم ولو بالصين » وغير ذلك من الآيات والأحاديث والآثار .

هذه الطريقة تصلح لإقناع قومنا بأن الإسلام يحث على العلم ، ولكن هناك عقبتين تقفان فى سبيل نجاحها :

الأولى : أننى وزملائى الذين يدافعون عن الإسلام لسنا بحُجَّة فى تفسير الآيات والأحاديث واستخلاص المبادىء الإسلامية الصحيحة منها .

والثانية : أن المتدينين لا يتبعون دائماً ما ترمى إليه نصوص دينهم ، بل كثيراً ما يحيدون عنها ويأخذون بأقوال الفقهاء والشراح الذين يذهبون فى أقوالهم كل مذهب ، فلا يكفى أن ينص الدين على شرف العلم ليكون أبناء ذلك الدين راغبين فيه مقبلين على تحصيله .

٢ - الطريقة التاريخية :

وهناك طريقة أخرى وهى الطريقة التاريخية ..

فى اعتقادى أن خطأ المشتغلين منا بالإسلام هو فى درس هذا الدين مستقلاً عن الظروف التى كانت محيطة بظهوره ، فلو عرفنا كيف كانت حال العالَم حين ظهر لوقفنا على أسباب انتشاره المدهش .

*

• عوامل انتشار الإسلام :

قال « رينيه ميوليه » : « إن الذى ساعد الإسلام على الانتشار هو ما قرره الإمبراطور « بيزانطين » فى القرن الثالث للمسيح من جعل المسيحية دين الحكومة ، وقد جرّ هذا القرار على الدولة البيزنطية من المشاكل أعقدها .

ولقد كان الدين الرومانى القديم دين حكومة أيضاً ، ولكنه كان ديناً يبتلع الديانات الأخرى ، بمعنى أن روما كانت كلما تغلبت على أمة جعلت آلهتها آلهة

لروما . وبخلاف ذلك كانت الحال فى بيزنطية ، ومنذ اليوم الذى استخدم فيه الإمبراطور السيف لنشر الدين انفتح فى وجه الدولة البيزنطية باب الآلام والهموم .

ولو أعدتم النظر فى تاريخ القرن الرابع والخامس والسادس للمسيح لوجدتم الأباطرة متوفرين على توحيد الدين وموجهين إليه كل قوى الدولة ، وفى ذلك كان تقعقع ملكهم وانقراضه . فكم أهرقت دماء فى سبيل كل عقيدة من عقائد المسيحية ، وكم من مقاطعة ضيّعها الإمبراطور على إثر كل قرار كان يصدر من مجمع « نيقية » !!

وإن مسألة طبيعة المسيح ، أو مسألة الأقانيم التى نعتقدها الآن بكل سكينة واطمئنان ، قد سالت من أجلها دماء غزيرة ، ونشأت من الجدال فيها حروب هائلة . هذا .. وإنه قد بلغ من عناية الحكومة بنشر الدين أنها غفلت عن احتياجاتها الأولية ، فاحترمت الصوامع ، ورفعت عن أهلها الخدمة العسكرية ، وعافتهم من دفع الضرائب ، فلم يكد يدخل القرن السادس حتى كانت الدولة فى غاية الضعف وملئت جوانبها بالخلافات الدينية .

* التوحيد وأثره فى الإسلام :

إذاً فما هو الإسلام ؟ الإسلام دين جاء بخلاف كل ذلك .

فقد اعتاض عن تعدد درجات الإدارة بسلطة واحدة يرجع إليها الحل والعقد فى كل الأمور .

ولم يقرر شيئاً من وساطة القسيسين بين الآلهة والشعب .

ولم يسن نظام الصوامع ، وقضى على عادة العزوبة التى كانت متبعة مستفيضة بين المسيحيين فى ذلك العصر ، وقضى أيضاً على عادة التنسك والخروج من الدنيا فقرر الاشتغال بالدنيا والآخرة معاً .

وبالجملة فقد أتى الإسلام بنظام مضاد للنظام المسيحى فى ذلك العهد ، ملائم لحاجات الناس وهذا هو سر غلبته على الدين المسيحى .

ثم إن الإسلام أرجع الدين إلى حالته الطبيعية ولم يأت بشىء من تلك

العقائد ، المسيحية الفلسفية ، بل قال بكل وضوح : « لا إله إلا الله » وبذلك خلا الإسلام من ذلك الاعتقاد الذى قسم الدول الأوروبية ، والذى جعل أهل مصر وآسيا الصغرى فى حالة استياء من تسلط الدولة البيزنطية .

وكيف لا تميل هذه الشعوب الساخطة إلى أهل الإسلام وهم يعلنون أنهم أهل التسامح مع مخالفيهم فى الدين لا يطلبون منهم إلا ضريبة يستعينون بها على إصلاح شؤونهم وشؤون الدولة الإسلامية ، ولقد بلغ الأمر بأحد الولاة إلى تثبيط دخول الذميين فى الإسلام بدلاً من أن يرغبهم فيه أو يكرههم عليه لأن إسلامهم يقلل من دخل بيت المال ، فزجره عمر بن عبد العزيز قائلاً : « إن الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً » .

ومن هذا الوصف التاريخي الموجز يمكنكم أن تتصوروا كيف نضبت ينابيع الحياة فى الدولة البيزنطية ، وأنتم تعرفون كيف انتشرت عادة التنسك والتقشف مع أنها لم تقلل من فساد الأخلاق - ويمكنكم أن تدركوا كيف أن التَّبَعة الآسيوية اعتبرت ظهور الإسلام إيذاناً بنجاتهم وسعادتهم .

وأذكر أنى أيام كنت أدرس تاريخ الإسلام كان الأساتذة يقررون سرعة انتشاره من دون إيقافنا على أسبابه ، وغاية ما كانوا يذكرونه هو أن طبيعة العرب طبيعة حربية ، وأن خيولهم جيدة تكاد تسبق ظلالها !! مع أن الحقيقة أن الفتوحات العربية كانت على البغال ، إلا أن العرب أتوا بعقيدة سهلة التناول ، لا تثقل الجندى المجاهد .

ثم إنهم فوق ذلك أتوا متشبعين بروح التسامح وذلك هو سر الانقلاب العظيم الذى أعطاهم مُلك آسيا وإفريقيا ونصف أسبانيا .

وإذا كان ذلك كذلك أدركتم ما تبع هذه النهضة من الأعمال الجليلة .

أتى العرب بعقائد سهلة ملائمة للفطرة وأعطوا الحياة الدنيا قسطها من الاعتبار فترقت العلوم والفنون والآداب باجتهادهم الذى عجز عنه المسيحيون الذين عاصروهم ، وإنى ليخيل إلىّ أنه كانت على أبصار مسيحيى القرون الوسطى غشاوة من تنسك منعتهم من إدراك الأشياء على حقائقها .

* * *

منزلة العلماء فى الإسلام

قال « آدم متز »[١] : « فى القرن الثالث الهجرى : صار الأدباء الذين نشأوا حول الخلفاء وفى قصورهم . أدباء من طراز جديد . يلمّون بكل شىء ويشبهون فى عصرنا الصحفيين غير المتخصصين الذين يتكلمون فى جميع الأمور . ولهذا نجد العلماء يُفرِّقون بين أنفسهم وبين الأدباء حتى قال ابن قتيبة : « مَن أراد أن يكون عالماً فليطلب فناً واحداً ، ومَن أراد أن يكون أديباً فليتسع فى العلوم » .

وكان صاحب العلوم الدنيوية يسمى كاتباً ، وكان يتميز عن العلماء فى لباسه ، فكان العلماء يلبسون الطيلسان ، وكانوا فى خراسان يظهرون متطلسين متحنكين . وكانت فارس مركز الكُتاب ، وكانوا فى المدينة شيراز يُرفعون على العلماء ، ولكن خراسان كانت جنة العلماء ، ولا يزال العلماء بها - إلى اليوم[٢] - يتمتعون بجاه واحترام لا نظير لهما فى سائر البلاد .

ومن أمثلة ذلك : أن أحد العلماء الزهاد دخل خراسان . فخرج أهلها بنسائهم وأولادهم يمسحون أرادنَه ، ويأخذون تراب نعليه ، ويستشفون به . وكان أصحاب البضائع من كل بلد يُخرجون بضائعهم وينثرونها ، ما بين حلوى وفاكهة وثياب وفراء وغير ذلك ، وهو ينهاهم حتى وصلوا إلى الأساكفة فجعلوا ينثرون ما عندهم وهى تقع على رؤوس الناس ، وخرج إليه صوفيات البلد بمسابحهن وألقينها إليه ، وكان قصدهن أن يلمسها فتحصل لهن البركة ، فكان يتبرك بهن ويُقْصد فى حقهن ما قَصدن فى حقه » .

ثم قال[٣] : « وكان إذا مات العالِم كسر تلاميذه المحابر والأقلام ، وطافوا

---

(١) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى : ١/٢٨٤

(٢) توفى الكاتب عام ١٩١٧

(٣) المرجع السابق : ١/٢٩٧

فى البلد نائحين فى الصباح . فلما مات الجوينى (المتوفى عام ٤٧٨ هـ = ١٠٨٥ م) وكان خطيباً مشهوراً أيضاً ، كُسِر منبره ، واشتركت نيسابور كلها فى حزن العلماء عليه ، فلم تفتح الأبواب فى البلد ، ووضعت المناديل على الرؤوس عاماً بحيث ما اجترأ أحد على أن يستر رأسه » [١] .

وقال « كارل بروكلمان » : « أعلن محمد على نفسه والياً على مصر بواسطة علماء الأزهر فى القاهرة ، صاحب السلطان الشرعى ، وكان الأزهر قد انتهى منذ قرون على أن يصبح مثابة الشرع والفقه فى نظر العالم الإسلامى ، ومهما يكن من أمر فقد كان الإسلام ولا يزال هو المهيمن على الحياة الدينية فى مصر » [٢] .

وفى (٢٦ نيسان ١٩٠٩) عقدت فى « سان استيفانو » جمعية وطنية فاتخذت بناء على فتوى من شيخ الإسلام قراراً بخلع السلطان ، وهكذا رفع إلى العرش أخوه « محمد رشاد » الخامس [٣] .

* *

● حماية الإسلام لعلماء الغرب وثواره :

قال « فازيليييف » : إن « توماس اليونانى » هرب إلى جوار الرشيد ، ثم بقى بعده فى بلاط المأمون ، وكان هربه سنة ٧٩٧ م حين كانت « إيرين » تشمل ابنها المغلوب « قسطنطين السادس » برعايتها ، وعقد « توماس » حلفاً مع المأمون ، وأصبح هذا الحلف شرعياً بتتويج « توماس » إمبراطوراً على يد « أيوب بطريرك أنطاكية » .



---

(١) حكى ذلك « ويستنفلد » عن السبكي فى طبقاته : ٢٥٧/٣ - ٢٥٨ ، وهو عمل غير مشروع فى الإسلام . (الجبرى) .

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية : ١١/٤ ، ترجمة منير بعلبكى ونبيه أمين فارس ، الطبعة الأولى .

(٣) المرجع السابق ص ٨١

● الروحانية والعالمية أساسان للحضارة :

وقال « اشبنجلر » : تنشأ الحضارة فى اللحظة التى تستيقظ فيها روح كبيرة ، وتستقل بذاتها عن الحالة النفسية البدائية التى توجد فيها الطفولة الإنسانية ، وهى تولد فى بقعة من الأرض محددة تمام التحديد ، ترتبط بها كارتباط النبتة بالتربة ثم تتفرع فى العالم .

فإذا تحولت هذه الروح بإمكاناتها إلى حضارة خاصة لشعب أو لغة أو توجه فنى وطموح سياسى رجعت إلى حالتها الأولى من الأحقاد والتطاحن واستخدام القوة للغلبة على موارد قوى الطبيعة المادية واستخدام الغرائز فى المتع الحسية .

وبقاء الحضارات يقتضى نزوعاً روحياً عن النوازع المادية ، واستعداداً نفسياً يكون أخلاقياً حقاً وكما قال « ألبرت اشفيستر » : يجب أن نكون متأهبين للعمل إيجابياً فى العالم والحياة . ويجب ثانياً أن نكون أخلاقيين .

وهذا ما قاله القرآن فى حضارته العالمية : ﴿ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فيها ﴾ [1] . ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [2] . ﴿ إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [3] . ﴿ فَاسْتَبِقُواْ الخَيْرَاتِ ، إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً ﴾ [4] .

هذه صور من مبادئه العالمية الأخلاقية العملية . إلى جانب الارتباط الزمنى للرسالة الإسلامية منذ بدء الخليقة : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ، أَنْ أَقِيمُواْ الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ [5] .

* *

(١) هود : ٦١ (٢) القلم : ٤ (٣) الحجرات : ١٠
(٤) المائدة : ٤٨ (٥) الشورى : ١٣

● النداءات للعالمية :

فى الغرب تكتل يدعو إلى نظام عالمى يرتكز على الحضارة المادية والحوافز المادية ، ولكن الإسلام منذ الأزل يدعو إلى حضارة عالمية تقوم على التوحيد لله رباً ، ووحدة المرسلين والرسالة فى المنهج الربانى الناجح فى كل مجتمع ارتبط بالوحى الذى خلق من البدو الحفاة ذوى حضارة ومدنية فكيف بمجتمعات أرقى من البدو ؟ إنه لا بد أن يكون أكثر نهوضاً بها ورفعاً لشأنها ، فقد ألغى الحدود والحواجز والتمايز الطبقى حينما أعلن : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُواْ ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [١] ، وبالشريعة الإسلامية تنتظم أعمال البَشر فى اتجاه واحد يربط كل الناس بالله ويربط كل سلوكياتهم وأعمالهم بالله : « إنما الأعمال بالنيَّات » ، ﴿ وَمَا أُمِرُواْ إِلا لِيَعْبُدُواْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [٢] ، ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ ، لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [٣] ، « إذا قامت القيامة على أحدكم وفى يده فسيلة فليغرسها » ، و« ما من مسلم يزرع زرعاً أو يغرس غرساً فيأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة إلا كان ذلك فى ميزانه يوم القيامة » .

ومن منطلق السلوك البَشرى الملتزم لطاعة الله تتنزل رحمات الله للبشرية : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القُرَى آمَنُواْ وَاتَّقُواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [٤] .

* *

---

(١) الحجرات : ١٣
(٢) البينة : ٥
(٣) العنكبوت : ٦٤
(٤) الأعراف : ٩٦

● أثر الدين الإسلامى فى الإنجازات الحضارية :

فى دراسة علمية جامعية عن الخصائص الإسلامية فى دفع الإنسان إلى العمل الحضارى المتقن - ففضلاً عن إرضاء الله - نجد النتائج بالأرقام كالآتى :

١ - ٨٧ر٤٪ من أعضاء هيئة التدريس الجامعى يرون أن الحوافز الإيمانية الروحية لها دورملموس فى حفزهم على العمل ، ٦ر٣٪ من الأعضاء يرون الحوافز المادية هى المحركة للإنسان .

٢ - ٩٠٪ يرون أن الإيمان وراء الثبات فى وجه التخلف ومقاومة المعتدين ، والتحرر من الاستعمار .

٣ - ٧٩ر٣٪ يرون أن الإيمان عنصر حيوى وأساسى لتحقيق الأمن النفسى . وإشباع الحاجات الاجتماعية ، ٤٪ يضعون الاعتبار لتوفير الإمكانات المادية [١] .

* * *

(١) القبس فى ١٩٨٦/٢/٢

سمو التشريع الإسلامى

قال الفيلسوف الإنجليزى : برنارد شو » : لقد كان دين محمد - صلى الله عليه وسلم - موضع تقدير سام ، لما ينطوى عليه من حيوية مدهشة ، وأنه الدين الوحيد الذى له مَلَكة الهضم لأطوار الحياة المختلفة ، وأرى واجباً أن يدعى محمد منقذ البشرية ، وأن رجلاً مثله إذا تولى زعامة العالم الحديث فسوف ينجح فى حل مشكلاته .

*　*

● تكوين الذوق الحقوقى :

يقول الأستاذ الفرنسى « لامبير » مدرس القانون المدنى فى جامعة ليون بفرنسا مخاطباً تلاميذه العرب : إن لديكم كنزاً لا نظير له عندنا ، هو فقهكم الإسلامى ، وضرب مثالاً على ذلك نظرية « إساءة استعمال الحق » أو « التعسف باستعمال الحق » التى افتخر باستنباطها بعض فقهاء الغرب ، ثم قال : إن أحد زملائكم قد أثبت فى أطروحته التى حاز بها « درجة الدكتوراة » أن مصدر هذه النظرية إنما كان فى الفقه الإسلامى .

ثم قال « لامبير » : إن القانون المقارن الذى تدرسونه فى القانون الغربى له مكان مرموق عندكم باسم « علم الخلاف » ، والمؤلفات العربية حافلة بأدق النقد العلمى الحقوقى ، وبأمثلة بديعة من النقاش المنطقى والتحليل الناقد الذى لا يزيد قارئه علماً بموضوع البحث فحسب ، بل يربى فيه ذوقاً حقوقياً يندر أن يحصل على مثله فى كلياتنا الحقوقية .

*　*

• الإجماع والقياس :

قال المستشرق الألمانى « جولد زيهر » : « سوف يرى - بلا شك - أن هذا الإجماع قد احتوى على ينبوع القوة التى تجعل الإسلام يتحرك ويتطور بكل حرية ، لأن هذا الأصل هو الذى يقدم العلاج الناجع تجاه غطرسة السلطة الشخصية ، وتعسف الكلمة التى لا حياة فيها » .

ويعلق على « القياس » - أحد مصادر الشريعة الإسلامية عند جمهور فقهاء المسلمين - فيقول : « إنه عبارة عن العقل الساهر على الشريعة الإسلامية وازدهارها الذى يدفع وصمة العقم فى قواعدها ، وتهمة الجمود فى طبيعتها » .

* *

• التشريع الغربى عالة على الإسلامى :

يقول المؤرخ الإنجليزى « ويلز » فى كتابه « ملامح تاريخ الإنسانية » : إن أوروبا مدينة للإسلام بالجانب الأكبر من قوانينها الإدارية والتجارية .

ويقول المؤرخ الفرنسى « سيديو » : إن قانون نابليون منقول عن كتاب فقهى فى مذهب الإمام مالك هو : « شرح الدردير على متن خليل » ، يعنى « سيديو » ما عدا النظام الربوى وقانون العقوبات والحدود الإسلامية .

* *

• محاولات التجهيل بقيمة الفقه الإسلامى :

هنالك محاولات مغرضة لتضليل دارسى القانون عن الشريعة الإسلامية وسموها على كل التشريعات الموجودة فى العالم أدت إلى تيه القانونيين فى الشرق والغرب ، وفى أحد المؤتمرات العلمية حول « الفقه الإسلامى » قام نقيب سابق للمحامين فى فرنسا يعلق على ما أسمعه فى المناقشة : أنا لا أعرف كيف أوفق بين ما كان يُحكى لنا عن جمود الفقه الإسلامى ، وعدم صلوحه أساساً تشريعياً يفى بحاجات المجتمع العصرى المتطور .. وبين ما سمعناه الآن

في المحاضرات ومناقشتها .. مما يثبت خلاف ذلك تماماً ، ببراهين النصوص والمبادىء .. إنه لشىء مثير للدهشة .

* *

● التوصية بالشريعة الإسلامية :

فى الوقت الذى كان فيه المسلمون - طبقاً لمعاهدة أتاتورك - مع الدول الصليبية الكبرى من إلغاء الخلافة والقانون الإسلامى فكان المسلمون يتباعدون عن الإسلام .. حتى مصر - والإخوان المسلمون وراء القضبان - حين استفتيت عن الدستور الذى تختاره ، قالت : الإسلام أساس الحكم ، فعمد وكيل بمجلس الشعب فى مطالع عام ١٩٧١ يقترح أن يقال : « الشريعة الإسلامية مصدر رئيسى من مصادر التشريع » بينما رغبة الجمهور كانت صريحة فى المطالبة بأن يكون « الإسلام المصدر الرئيسى » وكتبت إلى الرئيس السادات يومها من داخل معتقل مزرعة طرة السياسى بذلك ، مع هذا النكوص فى البلاد الإسلامية كان المتخصصون فى القانون يطالبون بما يحاربه حكام المسلمين - ولا يزال كثيرون يحاربونه .

* *

● المؤتمر الدولى للقانون المقارن :

انعقد هذا المؤتمر فى مدينة « لاهاى » فى هولندا سنة ١٩٣٧ وكان من بحوثه بحثان قيمان :

١ - المسئولية المدنية والجنائية فى الشريعة الإسلامية . قدمه الشيخ محمد شلتوت .

٢ - استقلال الفقه الإسلامى ، ونفى كل صلة مزعومة بين الشريعة الإسلامية والقانون الرومانى .

وبعد المناقشة سجل المؤتمر ما يلى :

١ - اعتبار الشريعة الإسلامية مصدراً من مصادر التشريع العام .. لكل دول العالم..

٢ - أنها حية قابلة للتطور .

٣ - أنها شرع قائم بذاته ليس مأخوذاً عن غيره .

* *

● مؤتمر المحامين الدولى :

وقد عقد فى « لاهاى » أيضاً فى سنة ١٩٤٨ ، واشترك فيه ٥٣ دولة من أنحاء العالم ومختلف الديانات ، وضم جمعاً غفيراً من الأساتذة والمحامين اللامعين من مختلف الأمم والأقطار ، واتخذوا فيه القرار التالى :

« نظراً لما فى التشريع الإسلامى من مرونة ، وما له من شأن هام ، فيجب على جمعية المحامين الدولية أن تتبنى الدراسة المقارنة لهذا التشريع وتشجع عليها »

* *

● أسبوع الفقه الإسلامى :

وفى ٢ تموز سنة ١٩٥١ عقدت شعبة الحقوق الشرقية من المجمع الدولى للحقوق المقارنة مؤتمراً للبحث فى الفقه الإسلامى ، ودعت إليه عدداً كبيراً من أساتذة كلية الحقوق العربية وغير العربية وكليات الأزهر وقد عقد فى كلية الحقوق بجامعة باريس فى فرنسا تحت اسم « أسبوع الفقه الإسلامى » .

وفى ختام المؤتمر أصدر المؤتمرون - بالإجماع - عدة قرارات تؤيد صلاحية الإسلام للمجتمع فى كل زمان ومكان .. ومن هذه القرارات ما نصه :

« إن اختلاف المذاهب الفقهية فى هذه المجموعة الحقوقية العظمى ، ينطوى على ثروة من المفاهيم والمعلومات ، ومن الأصول الحقوقية ، ما هى مناط

إعجاب . وبها يتمكن الفقه الإسلامى أن يستجيب لجميع مطالب الحياة الحديثة والتوفيق بين حاجاتها » [١] .

* * *

• حضارة العرب فى الجاهلية :

يقول المؤرخ العالمى « ويلز » فى « معالم تاريخ الإنسانية » عن بلاد العرب قبل سيدنا محمد ﷺ ما نصه :

« لقد كانت بلاد العرب منذ أزمان سحيقة ، وذلك عدا شريط اليمن الخصب فى الجنوب العربى - أرض بَدْوٍ رُحَّل ، ولم تكن هناك حتى مفتتح القرن السابع الميلادى أمارات على وجود أية قوة غير معتادة أو خطرة فى الصحراوات العربية ، إذ كانت حياة البلاد تسير على نمطها منذ أجيال طويلة ، فحيثما كانت هناك بقاع خصبة . أعنى حيثما كانت هناك عين أو بئر ... كان يعيش سكان زراعيون قليلو العدد فى مدن مسوَّرة ،. محاذرة من البدو الذين يتجولون مع أغنامهم وماشيتهم وخيولهم فى الصحراء .

وكانت المدن الرئيسية تقوم على امتداد طرق القوافل الهامة ، وهى فى المنزلة الثانية من الرخاء . وكانت فى طليعتها « يثرب » بلداً يحتوى على ما يقرب من خمسة عشر ألف نسمة على حد الرواية ، ويجوز أنه كان فى « مكة » عشرين أو خمس وعشرون ألفاً . وكانت « يثرب » بلداً أفضل نسبياً من حيث المياه ، بها أحراش نخيل كثيرة . وكان سكانها من اليمانية . أى من رجال الأرض الخصيبة فى الجنوب ، أما « مكة » فهى مدينة من طراز آخر قائمة حول ينبوع ماء . وسكنها بدو حديثو الاستقرار » [٢] .

* * *

---

(١) عكرمة سعيد صبرى ، التحديث فى نظر الإسلام ص . ٢ ، ٢١ ، القبس ٤ . ١٤ هـ (١٩٨٣ م) .

(٢) المستشرقون والإسلام ص .٥٨ - ٥٨٢

● أثر الإسلام فى حياة العرب :

قال الفيلسوف الإنجليزى « توماس كارليل » : لقد أخرج الله العربى من الظلمات إلى النور بالإسلام ، فقد كانت فئة من جوالة العرب تجوب الفلاة منذ بدء العالم ، لا يُسمع لها صوت ، ولا تحس بها حركة ، فأرسل الله هذا النبى برسالته من عنده ، فإذا خمول الذكر قد استحال شهرة ، والغموض نباهة ، والضعف قوة ، وما هو إلا قرن من هذا الحادث حتى أصبحت لدولة العرب قدم فى الهند وقدم فى الأندلس ، وأشرقت دولة الإسلام قروناً طويلة على نصف المعمورة (١) .

* *

● آثار الإسلام الاجتماعية :

قال « درمنجم » فى كتابه « حياة محمد » : وكان للدعوة المحمدية فى جزيرة العرب أثر عظيم ثابت فى تقدم الأسرة والمجتمع ، وفى تقدم الصحة أيضاً ، فقد حسَّن بها مصير المرأة كما نرى فى فصل آت . وحرم بها الزنا والمتعة وجبلة الغرام ، ومنع بها إكراه القيان على البغاء لإثراء سادتهن .. والإسلام - وإن أباح الرق - نظَّم أحكامه ، فعدَّ فك الرقاب من الحسنات ومكفِّراً لبعض السيئات . قال النبى : « أيما رجل أعتق امرءاً مسلماً استنقذ الله بكل عضو منه عضواً من النار » ، وقال النبى : « مَن لاءمكم من مملوكيكم فأطعموه مما تأكلون ، واكسوه مما تكتسون ، ومن لم يلائمكم منهم فبيعوه ولا تعذبوا خلق الله تعالى » ، ودعا أبو ذر بلالاً بـ « ابن الحبشية » معيراً ، فقال النبى : « يا أبا ذر ، إنك امرؤ فيك جاهلية » ، وقال النبى : « لا يقولن أحدكم : عبدى وأمتى ، ولكن ليقل : غلامى وجاريتى ، وفتاى وفتاتى » (٢) .

* * *

---

(١) هذا هو الإسلام ص ٦٩

(٢) حياه محمد - لدرمنجم - ص ٢٩ .

الفصل الثانى

المظاهر الحضارية

- ظواهر التمدين وحقيقته .
- الخلق عنصر حضارى .
- أثر الحضارة الإسلامية حتى اليوم .
- الزراعة ..
- مزارع تجارب النبات .
- الصناعة .
- فى الفن والتاريخ ..
- الموسيقى والغناء فى الأندلس .
- تخطيط المدن الإسلامية .
- الأعياد فى القرن الرابع الهجرى .
- الألقاب والتكلف فى المكاتبات .

المظاهر الحضارية

● ظواهر التمدين وحقيقته :

قال جورجى زيدان [١] : « ولكل تمدن ظواهر يبدو بها للناظرين ، وحقيقة تتجلى منه للباحثين .

أما الظواهر فهى ما نراه من ثمار وذلك التمدن ، كالتربية والعلم والأدب ، والثروة والصناعة والتجارة ، ونظام الهيئة الاجتماعية وآدابها .

وأما حقيقة التمدن فهى ما ينتج عن التمدن من الخير أو الشر ، من السعادة أو الشقاء للمستظلين بظله من المسلمين وسواهم من بنى الإنسان .

قال « فاسيلى ڤلاديمير ويج بارتولد » فى كتابه « تاريخ الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع » [٢] : « أبعد الرومان من بحر الخزر نهائياً ، وكانوا قد استولوا عليه فى زمن پومپى (Pompai) وصارت إيران مزاحمة قوية للدولة الرومانية فى زمن الساسانيين كذلك ، واستولت على طريق تجارة الهند والصين ذات الخطر لجميع العالم المتحضر ، وبهذا الحادث يبتدىء انتقال التفوق فى الحضارة من أوروبا إلى الشرق الأدنى .

ويتجلى هذا كاملاً فى عهد المسلمين ، إذ أن تلاقى المسيحية والإسلام ، وبروز مذهب التجديد الأدبى غيَّرا آراء الأوروبيين فى الشرق ، فصارت معرفة لغة من اللغات الشرقية أمراً محتماً على كل أوروبى مثقف .

*

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامى : ٢/١١

(٢) ترجمة حمزة طاهر ص ٧ ، الطبعة الثانية - دار المعارف .

● تفوق الحضارة الإسلامية :

ثم قال « بارنولد » : ومهما كانت مزايا النصرانية بالقياس إلى الإسلام فإن حضارة العالم الإسلامي ما فتئت متفوقة على الحضارة المسيحية ، حينما كانت تجارة العالم بأيدي المسلمين ، ومهما بلغت مزايا أوروبا في أقاليمها وطبيعتها وموقعها الجغرافي بالقياس إلى القارات الأخرى ، فإن هذه المزايا ما ظهرت إلا بعد أن أخذت أوروبا تشغل الدرجة الأولى في العلاقات المدنية [١] .

وكان أكثر المبشرين من النصارى يكرهون العلوم والفنون المتصلة بالعقيدة الوثنية (لعل ذلك لتأثرهم بالثقافة الإسلامية) ولم يكن عند نصارى القرن العاشر ما يدعو إلى الاهتمام بشئون الدولة وتقدم الحضارة مادياً وأدبياً ، وكانت الكنيسة سبباً لسقوط العلم والفن [٢] .

* * *

---

(١) بارنولد : تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٧ - ٨

(٢) المرجع السابق ص ١٣

الخُلُق عنصر حضارى

بيَّن الرسول محمد ﷺ هذه الحقيقة عندما جعلها الطابع الحضارى للمسلم والإسلام وقال : « إنما بعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق » ، وقال له ربه : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [1] .

وفى الآثار : « لكل دين خُلق وخُلُق هذا الدين الحياء » . وكان الرسول ﷺ يُعلِّم أصحابه إذا نظروا فى المرآة أن يقول أحدهم : « اللّهم أنت حسَّنت خَلْقى فحسِّن خُلُقى » ، وقد تنبه مؤرخو الحضارة لهذه الظاهرة فى الإسلام فقال « لوبون » : لقد غيَّر عرب أسبانيا شكل الأندلس فى بضعة قرون . ليس فى الماديات والعقليات فحسب ، بل تعدوها إلى الأخلاقيات ، فقد تعلَّموا وحاولوا أن يُعلِّموا الشعوب النصرانية أثمن الصفات الإنسانية وأعنى بها « التسامح » ، ولقد كان من لطفهم مع الشعب الذى افتتحوا أرضه أن يعقد أساقفته مجامعهم الدينية فى إشبيلية سنة ٧٨٢م ، وفى قرطبة سنة ٨٥٢ م ، وهذا من الأمثلة على غاية تسامحهم وعلى حسن معالجة الأمور .

ومن هذا القبيل هذه الكنائس والبِيَع الكثيرة التى شادها نصارى الأسبان فى العهد العربى فى أسبانيا . وكل ذلك دليل على الأخلاق السمحة التى كان العرب يعاملون بها ذوى المعتقدات المخالفة التى تحت سلطانهم .

وقد انتحل الإسلام كثير من النصارى على حين لم يكن لهم فى ذلك كبير مصلحة ، لأن النصارى الذين كانوا فى مظلة الحكم العربى ، ويُطلق عليهم وصف « المستعربين » ، كانوا يُعامَلون هم واليهود على حدٍّ المساواة مع المسلمين فى القانون والتعامل الاجتماعى ، فيمكنهم أن يتولوا جميع وظائف الدولة ، وكانت أسبانيا العربية البلد الوحيد فى أوروبا الذى كانت فيه حقوق

---

(١) القلم : ٤

اليهود مصونة ، حتى كثر فيها سوادهم ، وفى الوقت الذى كان يطلق فيه وصف « المستعربين » على أبناء النصرانية الخاضعين لأحكام المسلمين فى الأندلس ، كان يطلق كلمة « المدجَّنين » على المسلمين الخاضعين لحكومة أسبانيا .

وقال « سوريليو » و« لبون » وغيرهما : كان العرب فى أسبانيا من حيث الأخلاق والعلم والصناعة أزكى من النصارى ، وكان فى أخلاقهم وصفاتهم شىء من الكرم والإحسان ، مما لم يكن له أثر عند غيرهم ، وفيهم الشمم الذى امتازوا به ، وكان الإفراط فى حبه مولداً لجنون البراز المشئوم [1]

وكتب « ريكو » لدوس حوالى سنة ١٢٩٤ م يصف المسلمين قائلاً فى صيغة تعجب : « ومَن لا يعجب بحماستهم وبخشوعهم فى صلاتهم ، وبرحمتهم الفقير ، وبتقديسهم اسم الله والأنبياء والأماكن المقدسة ، وبحسن عشرتهم ولطفهم مع الغريب ، وبانفاقهم وتحابهم » .

* * *

● أثر الحضارة الإسلامية حتى اليوم :

فى مارس ١٩٢٨ جاء إلى القاهرة الأستاذ « يهودا » من جامعة مجريط وألقى محاضرة فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة قال فيها :

« أخذ الناس يدركون الآن : أن أوروبا فى القرون الوسطى مدينة للحضارة العربية التى اغترف من مناهلها المسلمون واليهود والنصارى على السواء ، وأدركوا أن العلوم الطبيعية والقوانين الأساسية فى الفلسفة والرياضيات وعلوم العمران كانت تستمد روحها فى زمن النهضة والإصلاح من ذلك المنهل العذب ، ألا وهو الحضارة الإسلامية ، وصار علماء العصر كلما تعمقوا فى دراسة هذه الحضارة أدركوا أثرها البليغ فى حضارة اليوم ، وكشفوا مئات الكلمات الداخلة فى اللغات الأوروبية من أيام تلك الحضارة .

---

(١) عن الإسلام والحضارة العربية : ٢٥٨/١ ، ٢٥٩

وبالرغم من تحامل دوزى (Dozy) على المسلمين فإنه يقول فى كتابه « تاريخ المسلمين فى أسبانيا » : « إن العرب لم يحكموا بتعاليم فلسفية فقط ، بل بالفطرة والغريزة [١] .. حتى حققوا بادىء بدء مقالة الثورة الفرنسية وهى : « الحرية ، والمساواة ، والإخاء » . ولقد كان البدوى يستمتع بحرية ليس أوسع منها على الأرض . ويقول : لا أعرف مولى غير مولى العالم ، وبلغ الحد الأعظم من الحرية ، بحيث لو قرنت معها أصولنا فى الحرية الراقية إلى أبعد الغايات لكانت تسجل أنها تشبه قواعد الاستبداد .

وإذا منحت إحدى القبائل لقب أمير لأحد أفرادها ، فلا يكون ذلك على الأغلب إلا من قبل الحرمة . لا يعود عليه بشىء ، بل هو بمثابة شهادة عامة تمنحه إياها ، دليل إجلالها له ، واعترافاً بإخلاصه فى قضاء شئون قبيلته .

قال أحد الأحرار الأقدمين : إننا لا نعطى هذه المرتبة لأحد ما لم يهبنا كل ما يملكه . ويسمح لنا أن نطأ بأرجلنا كل عزيز لديه ، وينزل عن كل ما يحب أن يراه مبجلاً شريفاً ، ويخدمنا خدمة الموالى والعبيد .

ثم قال : « وهذا الفهم العربى للحرية والإمارة خير من مفهومها الديمقراطى الغربى ، لأنه أدعى إلى نجاة الأفراد الأمراء من الأطماع التى لا حدَّ لها .. مما يهدم أركان المجتمع كما هو مشاهَد فى أوروبا » .

ثم قال : « إن العرب لما نزلوا فى الولايات الجسيمة التى افتتحوها بحد السيف اشتغلوا مع هذا بالعلوم ، إلا أنهم لم يظهروا فى غير مظهرهم الأول فى عدم الخنوع لحكم الخلائق ، وترجموا كثيراً من كتب الأقدمين ، وعلقوا عليها شروحاً ، فاغتنت بأعمالهم بعض فروعها . واتسع نطاقها بملاحظاتهم الدائمة

---

(١) يتجاهل أن الإسلام نفسه دين الفطرة : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ، فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ .
(الروم : ٣٠) .

البالغة غاية الدقة والوضوح ، لقد كانت أوروبا تحت سلطة الباباوات ، يتصرفون فيها على هواهم ، ويتحكمون فى الأرواح والأشباح ، والناس تائهون فى ظلام الجهالة ، لا يرون النور إلا من سمّ الخياط . والنور لا يسطع إلا من جانب الأمة الإسلامية من علوم وأدب وفلسفة وصناعات وغير ذلك .

وكانت بغداد والبصرة وسمرقند ودمشق والقيروان ومصر وفارس وغرناطة وقرطبة هى المراكز العظيمة للعلم ، بينما عواصم أوروبا التى ندهش بها اليوم كانت أشبه بقرى ، لا علم فيها ولا عمران ، وهى متأخرة فى شئونها المادية والأدبية كافة .

وما كانت فى دار الإسلام مدرسة ولا جامع ولا بلد ولا دار كبرى تخلو من خزائن كتب مسبّلة على المطالعين . هذا مع ندرة المخطوطات فى ذلك العهد وغلائها ، يجتمع العلماء فى تلك الدور يقرأون ويتباحثون ويتدارسون ، تساوى فى ذلك الرجال والنساء .

وكانت المعارف فى المدن والقرى - وفى الأندلس خاصة - مبذولة لكل طالب ، حتى قال أحد مؤرخى الإفرنج : إن معظم سكان أسبانيا الإسلامية كانوا يقرأون ويكتبون فى زمن كان أهل الطبقة العليا فى أوروبا النصرانية أميين لا يقرأون ، عدا أفراداً قلائل من الشمامسة ، جعلوا الكتابة صناعة لهم .

وقال « روبرتسون » : كان فى أسبانيا فى ابتداء القرن الخامس عشر مدن كثيرة أعمر من باقى مدن أوروبا حاشا مملكتى إيطاليا وبلاد القاع . وكان العرب أنشأوا فى مدنهم معامل ومصانع إبّان كانوا يحكمونها .

وقد غصّت ديار المسلمين بالمجامع العلمية ، مؤلّفة من علماء لا يُنظر فى اختيارهم إلى الدين الذى يدينون به ، بل يراعى فيه علمهم واختصاصهم ، وما كان مجلس لخليفة أو عظيم بخلو من عالم ينصت الحضور له . ومِنَ الملوك مَنْ كان

يستصحب العلماء فى غزواته [١] ، ومنهم مَن يستصحب أحمالاً من الكتب فى غزواته .

وقال أحد علماء الإنجليز فى مطالع هذا القرن : « لم يتمكن أهل أسبانيا من أن يحولوا دون تغلغل النفوذ الإسلامى فى صميم حياتهم ، حتى إن ممالك أسبانيا النصرانية استعملت النقود الإسلامية أربعة قرون .. واستحضر كثير من ملوك قشتالة وأرجون جماً غفيراً من علماء المسلمين واليهود ، وقدموهم فى مجالسهم ، ورفعوا من أقدارهم ، كما استخدم كثير من ملوكهم مهندسين وبنّائين من أهل الإسلام .

هكذا كانت روح التسامح الإسلامى التى ماتت فى أسبانيا وقضى عليها بالقضاء على الإسلام ، وحل محلها روح خبيثة ملؤها التعصب الأعمى الذى أشعل ناره القساوسة الكاثوليك ، لتصبح أسبانيا أسيرة رقهم وعبوديتهم » [٢] .

وقال « چوتيه » : للعرب فى باب الاختراعات شىء لا بأس به بالنسبة لعصورهم ، وقد وُجِد فى كتاب عربى قديم لم يُنقل إلى اللغات الأوروبيه أن العرب عرفوا طريقة عمل الجليد الصناعي ، بينما لم تعرف أوروبا سر هذه الصناعة إلا فى النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادى ، وأدخلوا على أوروبا الورق المعمول من القطن ، والورق الرخيص الثمن فقد كان الناس يكتبون على البردى وهو غالى الثمن جداً ... وقال : إن العرب علّمونا صنع الكتاب ، وعمل البارود ، وإبرة السفينة ، فعلينا أن نفكر ماذا كانت نهضتنا لو لم يكن من ورائها هذه المخلفات التى وصلتنا من المدنية العربية » [٣] .

* * *

---

(١) شأن الإسكندر الأكبر ثم الحملة الفرنسية لنابليون على مصر .

(٢) الإسلام والحضارة العربية : ٢١٩/١ (٣) المرجع السابق : ٢٢٥/١ - ٢٢٦

الزراعة

« ما من مسلم يغرس غرساً ، أو يزرع زرعاً ،
فيأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة ، إلا كان
ذلك فى ميزانه يوم القيامة » (حديث شريف) .

قال « رامبو » [1] : لم يكن فى عصر العباسيين أهم من مهنة الفلاحة . فقد أظهر العرب بمهارتهم مزايا فواكه الفُرس . وأزهار إقليم مازندران ، وقد أغنوا العلم - ولا سيما علم النبات - بمسائل جديدة كثيرة .

ومعظم المستحضرات والأدوية المستعملة كالأشربة والدهون والمراهم والغَوْل (الكحول) واللعوق والسنامكى والراوند والخيار شنبر وجوز القىء ، هم الذين كشفوها .

ومضى دهر طويل كان فيه شعوب الأمة العربية أول العارفين بالزراعة ، وأحسن العمال ، وأصبحت الزراعة التى أخذوها من أساليب بابل والشام ومصر علماً حقيقياً للعرب ، أخذوا نظرياتها من الكتب ثم وسَّعوها بتدقيقاتهم وتجاربهم ، وكانوا يطبقونها بمهارة ، ولا يستنكف أعلى الطبقات عن العمل بأيديهم فى زراعة الأرض ، بينما كان غيرهم يحتقرها ويعدها عملاً مهيناً . وقد روى « دوزى » أن ابن الخطيب لم يكتسب من غير التجارة والفلاحة مالاً . وقد أقام من أعمال العمران ما يحسده عليه أعظم طواغيت الزمان .

● تعقيب : كيف لا . والعمل بالزراعة عبادة إلى جانب أنها كسب شريف ، ففى الحديث : « ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة إلا كان ذلك فى ميزانه يوم القيامة » .

* *

---

(١) الإسلام والحضارة العربية : ٢٦٦/١ ، ٢٢٧ عن التاريخ العام للافيس ورامبو .

وقال « سنيوبوس » فى « تاريخ الحضارة » : جرى أمراء العرب على أصول إسقاء الأرضين بفتح الترع ، فحفروا الآبار ، وجازوا بالمال الكثير مَن عثروا على ينابيع جديدة . ووضعوا المصطلحات لتوزيع المياه بين الجيران ، ونقلوا إلى أسبانيا أسلوب النواعير لتمنح المياه ، والسواقى التى توزعها . وإن أسهل « بلنسية » الذى جاء كأنه حديقة واحدة ، هو من بقايا عمل العرب وعنايتهم بالسقيا .

*

● هندسة الرى :

ثم قال « سنيوبوس » : لقد نظم العرب ديوان المياه الذى كان يرجع إليه فى شئون الرى .

وذكر « ويليام ويلكوكس » من أعاظم مهندسى الرى فى أوائل الثلاثينيات : أن عمل الخلفاء فى رى العراق فى الأيام الماضية ، يشبه أعمال الرى فى مصر والولايات المتحدة الأمريكية واستراليا فى هذا العصر (لعله يعنى رى الحياص فى بعض المناطق ، وبالآلات فى البعض الآخر ، وبالأمطار فى مناطق أخرى) .

*

● مزارع تجارب النبات :

وذكر « سنيوبوس » : أن العرب استعملوا جميع أنواع الزراعة التى وجدوها فى مملكتهم ، وحملوا كثيراً من النباتات إلى صقلية وأسبانيا ، وربوها فى أوروبا فأحسنوا تربيتها ، حتى لتظنها متوطنة ، وذلك مثل الأرز ، والزعفران والقُنَّب ، والمشمش ، والبرتقال ، والكبار ، والنخل ، والهليون ، والبطيخ الأصفر ، والعنب ، والعطر ، والورد الأزرق والأصفر ، والياسمين ، بل والقطن والقصب .

وقال « ريسون » : إن استبحارعمران العرب مع سرعة انتشار سلطتهم فى

المعمور يدل على مكانتهم فى التقدم ، فكانت هذه الحضارة مزيجاً للحضارات ، وتم هذا المزيج المدنى بأمرين ، عشق التجارة ، والغرام بالتعمير . وأصبحوا لذكائهم الوقاد ، ولما غرس فيهم من حب الاطلاع على كل شيء ، يخوضون غمار العلوم الطبعية والرياضية ، فابدعوا الكيمياء وبرعوا فيها ، وطبقوا تلك العلوم على الزراعة والصناعة .

ويقول المستشرق « لويس » البرتغالى : إن تاريخ العرب حافل بذكائهم وتقدمهم وسيادتهم فى كل العلوم والفنون حتى فى الزراعة ، فقد كانوا بعد غزوهم إحدى المقاطعات حين يجدونها خربة يحيلونها بعد سنين إلى جنات حقيقية ، بفضل مساعيهم وتفوقهم وتدابيرهم العجيبة .

ويؤكد « بالستر » المؤرخ الأسبانى هذا قائلاً : امتاز العرب بسرعتهم الغريبة فى تلقف علوم العالم القديم ، من فلسفة وتاريخ وحساب وهندسة وفلك وعلوم طبعية ، وتفردُوا خاصة بعلم النبات ، نشروه فى مدارسهم الكثيرة . ومن أعمرها مدارس قرطبة وطليطلة وأشبيلية .

● تعقيب : من خطأ الكاتب قوله : « تفردوا بعلم النبات » ، والواقع أنهم تفردوا بكثير من العلوم ابتدعوها كعلم الجبر الذى ابتكروه .

وقال بعض الباحثين : لما استولى العرب على ناربون ، وبروفسيا ، وغيرهما : عمروها فأحسنوا عمارتها ، وكان « شانجة » - أمير ليون - يستشير بنفسه أطباءهم ، وعمن تعلموا فى مدارس قرطبة لفزاريل ، ولابيه دى كلونى . وأخذت فرنسا من العرب أساليبهم فى الزراعة ، وحفر الترع والخلجان ونظام الرى . وبلَّدوا فى الأندلس النباتات والأشجار التى لم تكن تعرفها . فانتقلت إلى أوروبا ، وأتونا بصناعة السجاد وإنشاء السفن [١] .

* * *

---

(١) محمد كردعلى : الإسلام والحضارة العربية : ٢٦٤/١

الصناعة

« خير الكسب كسب الصانع إذا نصح »

(حديث شريف)

قال « سيديليو » : إن بعض الفرنجة زعموا أن العرب لم يعملوا فى تقدم الصناعات شيئاً ، مع أنهم برعوا فى جميع الفنون الصناعية ، واشتهروا عند الأمم بأنهم دباغون ، سباكون ، جلاءون للأسلحة : نساجون أصناف الثياب ، ماهرون فى أشغال المنقاش والمقراض ، ويؤيد علوّ كعبهم فى هذه الفنون سيوفهم الباترة ، ودروعهم الخفيفة الصلبة ، وبُسطهم ذات الوبر ، ومنسوجاتهم من الصوف والحرير والكتان ، وما كشمير هذه الأيام إلا نموذجات دالة على تلك الصناعة .

ويقول « رينو » : إن العرب لما أغاروا من الأندلس على جنوبى فرنسا وافتتحوا بقيادة السمح الخولانى وعنبسة الكلبى ، والحر الثقفى مدائن أربونة ، وقرقشونة ، وأفنيون ، وليون ، كانوا مجهزين بأسلحة لم يكن للإفرنج مثلها .

وقال « لوبون » : لا يرى الباحث فى مختلف مصنوعات العرب أية صلة ظاهرة بمصنوعات أية أمة أخرى . فالإبداع فى مصنوعات العرب تام واضح . ولم يسبقهم أمة فى قوة هذا الإبداع الفنى .

ويقول « نيكلسون » : « .. وما المكتشفات اليوم ، لتُحسب شيئاً مذكوراً ، إزاء ما نحن مدينون به للرواد العرب الذين كانوا مشعلاً وضاءً فى القرون الوسطى المظلمة ، ولا سيما فى أوروبا .

وقال « رفول » فى تاريخ الجيش الفرنسى » : اقتبس الغربيون من العرب - فى الحروب الصليبية - أصول نسف حصون المدن كما أخذوا من العرب طريقة استعمال النار اليونانية (أى الصواريخ) وقد استخدمها صلاح الدين فى حصار عكا سنة ١١٩٠ م .

وكانت دمشق فى الذروة العليا من حيث صناعتها ، يصنع فيها دروع تقى وقع السهام ، وهى أطول حجماً مما كان يصنع من طرازها فى أوروبا ، وكانت دمشق فى الذروة العليا من حيث صناعة الخوذ ، ذات الحافات الكاملة والسيوف الجميلة المحلاة والمصنوعة من الفولاذ . دع ما كان يُصدَّر من تلك المدينة من الثياب الرقيقة الطريفة التى شاع استعمالها فى الغرب لدن عودة الصليبيين من الشرق .

وقال « سنيوبوس » : « ويتعذر الحكم فى تحديد الطرق التى دخل منها إلى أوروبا اختراع من اختراعات الشرق ، وفيما إذا كان انتهى إلينا من طريق الصليبيين فى فلسطين ، أو من طريق التجار الإيطاليين أو جاءنا من عرب صقلية أو من المغاربة فى أسبانيا . بَيْدَ أن الحساب يمكن تقديره بما نحن مدينون به للعرب ، وإن كان هذا الحساب مما يطول شرحه ، فقد أتتنا من العرب :

أولاً : الحنطة والهليون والقنب والكتان والتوت والزعفران والأرز والنخيل والليمون والبرتقال والبن والقطن وقصب السكر .

ثانياً : معظم صناعاتنا فى التزين كالثياب الدمشقية القطنية والسختيان وثياب الحرير المزركشة بالفضة والذهب ، والشاش الموصلى ، والشفوف والحبر والمخمل والورق والسكر وعمل الحلويات والمشروبات .

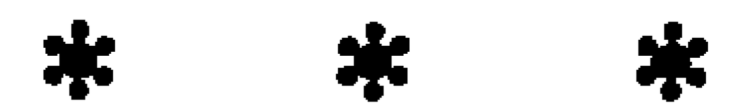
ثالثاً : مبادىء كثير من علومنا كالجبر وحساب المثلثات والكيمياء والأرقام العربية التى اقتبسها العرب من الهنود فسهل بها الحساب مهما كان صعباً ، ولقد جمعت العرب وقرَّبت جميع الاختراعات والمعارف المأثورة عن العالم القديم فى الشرق (كيونان وفارس والهند والصين) وهم الذين نقلوها إلينا ودخل كثير من الألفاظ فى لغتنا ، وهى شاهدة بما نقلناه عنهم .

وبواسطة العرب دخل العالم الغربى الذى كان بربرياً فى غمار المدنية ، فإذا كان لأفكارنا وصناعاتنا ارتباط بالقديم فإن جماع الاختراعات التى تجعل الحيَاة سهلة لطيفة ، قد جاءتنا من العرب ، وأخذ الأوروبيون من العرب صنع الجوخ فى جملة ما أخذوا من الصنائع .

وكان أهل بيزا الإيطاليون ينزلون مدينة بجاية فى الجزائر ، فتعلموا منها صنع الشمع ، ومنها نقلوه إلى ديارهم وإلى أوروبا .

وذكر « ريسون » أن العرب أحرزوا فضل السبق - دون غيرهم - فى مضمار التجارة ، ورقوا الصناعة البحرية ، ووضعوا قوانين الملاحة ، واقتبسوا من الصينيين استعمال إبرة السفينة ، وضبطوا التجارة بفن مسك الدفاتر ضبطاً جيداً ، وشرحوا الكفالة وأنشأوا المصارف للفقراء ، ووضعوا السفاتج (الكمبيالات) المألوفة ، وردود التمسك (البروتستو) ، وبعثوا الحركة فى مصارف الغرب الحديثة .

وكنت تراهم - حيث ينزلون - يمهدون السبل ، ويعمرون المرافىء والفرض ، ويصلحون الفنادق والرباطات ، ويرتبون سير القوافل ، وكانت المدن الإسلامية أوساطاً تجارية كبرى [١] .



(١) العرب والتجارة لريسون ، مجلة المقتبس - م ٧ .

في الفن والتاريخ

جاء في كتاب الفن والتاريخ لمؤلفه « لركيه » :

إن العرب ورثوا فيما ورثوا عن الأمم التي دخلت في حوزتهم الفنون والصناعات ، وأخذوا يحذقونها ويبرعون فيها في مدارس « المورثين » . إذ لم يكن في استطاعتهم أن يرتجلوا فناً كما ارتجلوا لهم ملكاً . ومع ذلك لم يمض زمن طويل حتى نبغ فيهم البناءون والحفارون ، والمصورون والنقاشون ، دون أن يروا في شيء من ذلك مخالفة لنصوص كتابهم ، أو معارضة لشريعة نبيهم ، ولم يقفوا عند حد الحذق والبراعة ، بل تعدُّوه إلى التفنن والإبداع ، فنقّحوا وصححوا ، وحذفوا وأضافوا ، ثم اخترعوا وابتكروا ، حتى طبعوا تلك الفنون بالطابع العربي ، وصبغوها بالصبغة الإسلامية ، حرصاً على شخصيتهم أن تفنى ، فأصبح الروح العربي بارزاً واضحاً يندمج فيه غيره ، ولا يندمج في شيء . ولهذا أوجدت العرب لها فناً يوافق ذوقها ويسير مع طبعها { ودينها } وسرعان ما انتشر في أرجاء تلك المملكة الواسعة انتشار الكهرباء .

قالوا : وقد خضعت الفنون الإسلامية لنواميس الطبيعة الإقليمية فاصطبغت في كل قطر بصبغته الخاصة ، وكانت في عامة أحوالها - من أندلسي ومغربي وصقلي ومصري وشامي وعراقي وفارسي وهندي ومغولي - إسلامية أصيلة كريمة نبيلة ، تنطق بما للإسلام من إباء ونجدة وشهامة ونخوة ...

* *

● الموسيقى والغناء في الأندلس :

يقول « جورج سرطون » [١] : لقد كان العرب في عامة أدوارهم مولعين بالموسيقى منذ ذهبت عنهم وحشة البداوة ، وقد أعظم الخلفاء والأمراء والقضاة والعلماء والفلاسفة والأدباء قدرها في التهذيب . حتى تخوَّف بعض علماء الدين

---

(١) الإسلام والحضارة العربية : ١/ ٢٥ - ٢٥٢

منها وأخذوا يفكرون : هل الموسيقى جائزة شرعاً ؟ وما هو القدر الذى يباح منها ؟ وهناك تآليف كثيرة تعنى بالبحث فى العلاقة بين الموسيقى وحُسن الأخلاق وسلامة الدين [١] ، وقد ألمَّ الغزالى فى كتابه « إحياء علوم الدين » بهذا الموضوع ، وألّف كبارٌ مسلمون { من رجال الفلسفة والطبيعة } فى فن الموسيقى فأبدعوا ، وبدأت الموسيقى العربية تسرى إلى الحجاز . نقلها إليه جماعة الموالى عن الفُرس والروم [٢] . وكانت الجارية تتعلم صنوفاً من الآداب اللازمة لإجادة العبارة وتطريبها بما يناسب المعنى . كالنحو والبلاغة والعروض ، وما يحتاجه التطرف فى القول وكسب الجمهور ذى المستوى الرفيع كالطب والتشريح واللعب بالرماح والسيوف حتى بلغ ثمن الجارية أحياناً ثلاثة آلاف دينار ، واشترى أحد الخلفاء جارية بمائة ألف .

وكانت مجالس الغناء فى بيوت الأمراء من أصحاب الستائر شهيرة وكثيرة ، سموا « أصحاب الستائر » لأنهم كانوا يضربون ستارة تحول بين القينات وبين المستمعين من الرجال وندماء الأمير .

ولا يزال إلى اليوم غناء الأسبان ورقصهم كغناء العرب ورقصهم ، وكذا فى البرتغال ومهاجرهم فى أمريكا الجنوبية ولا سيما أهل الأرجنتين والبرازيل .. وعن العرب والأسبان أخذ الفرنجة .

● ملاحظة : هذا مظهر حضارى واكب التفسخ الدينى .. فهو اللهو الذى إن جاز - كملح الطعام قليلاً - فكثيره قاتل للشعوب .

* *

● معرض السلطان سليمان القانونى :

طاف المعرض فى الثمانينات كبريات المدن الأمريكية . والسلطان سليمان هو السلطان العاشر من سلاطين العثمانيين .

يقول « بلند الحيدرى » : ويعتبر الفن الإسلامى من بين الفنون القديمة أكثرها

---

(١) للأخت زينب عوض الله بحث جيد عن « الغناء واللهو فى الإسلام » .

(٢) وهذا يشعر أنه فن دخيل على الإسلام .

تميزاً بشخصيته الشاملة التى بقيت محتفظة بوحدتها رغم تسطّحه على مساحة من الأرض تمتد من مشرقها إلى مغربها ، ورغم عبوره - لفترات تحولية مهمة خلال ما نيف على ثلاثة عشر قرناً ، ورغم تكيفه لألوان شتّى من التواريخ السياسية فى العالم الإسلامى والتى نشأ ملتصقاً بها التصاقاً حميماً .

والناقد الفرنسى « جورج مارسيه » فى كتابه « الفن الإسلامى » يرى أن هذا الالتصاق ميزة مهمة من مميزاته ، فلئن كان ظهور الفنون الأخرى مستقلاً عن هذه الظروف التاريخية فإن الفن الإسلامى بقى مرتبطاً بها باستمرار .

وإذا كان الفن الإسلامى قد تأثر بما وصل إليه من فنون البلدان المجاورة ، حيث إن الإسلام يتنافى مع الجمود ، فإنّ أيّاً من تلك الفنون لم يسلم من تحريف الفنان المسلم الذى أعطاه بذلك سمته الخاصة به وبمعتقداته ، وجرّدها من كل ما تنطوى عليه من رموز وإشارات لتستحيل إلى فن زخرفي تجريدى بعيد عن كل رمز تاريخى أو أسطورى .

وفى كثير من الزخارف التى تعود بنا إلى القرنين السابع والثامن الميلاديين قد نلمس أسلوب الفنانين القبط فى استخدام التباين ما بين الظل والضوء ، ولكننا نلمس - فى الوقت ذاته - أثر المسلمين فى تطوير هذا الأسلوب برفعهم من شدة الخاصية المنبثقة عن التناسق الزخرفى ما بين الأرضية الغائرة والخطوط المتقاطعة والمتكررة على سطحها مما أكسبها الطابع الإسلامى .

ومثل ذلك ما قد نقع عليه فى استخدام الفنان المسلم لأسلوب التوريق الساسانى القائم على إندماج المراوح التخيلية بانتظام وتماثل ما بين المراوح الكاملة وأنصاف المراوح ، إلا أنه استطاع أن يخرج بهذا الأسلوب إلى أشكال جديدة من النمط التى يصعب أن ننسبها إلى غير قدرتها الذاتية فى التحوير والتغيير بحيث يصبح عامل التأثر عاملاً ثانوياً وغير واضح ، وهو ما يشير إليه « جورج مارسيه » بقوله : لقد أعطاها وجهاً جديداً لا يمكن به التعرف على أصولها .

وهذا ما أكده البروفسور « م . س . ديماند » فى كتابه « الفنون الإسلامية » إلى أن الفن الإسلامى عندما اقتبس الأشكال المجنحة عن الفن الساسانى فى

الزخرفة الإسلامية أحدث تحويراً فى أشكال الأجنحة أو الأشكال المجنحة الساسانية حتى فقدت طابعها فى معظم الأحيان وأصبحت عنصراً زخرفياً بحتاً .

ويذهب العالم الأثرى « هرز فيليد » إلى القول بأن : ثمة ثلاثة أساليب كانت تشكل مسارب إلى الفن الإسلامى فى العصر العباسى ، منها ما يمت بصلة إلى تقاليد الفن الهيلنستى ، أما الأسلوب الثانى فيتمثل فى استخدام المربعات والمعينات والأشكال الكوكبية والتى تقوم على صيغ نباتية أو حيوانية توضح العلاقة ما بين الأجزاء ، وحيث تتصل ورقة الكرمة المصحوبة بعنقود هرمى بساق مرنة تنحدر ملتفّة على بعضها .

وكان للخط العربى دور مهم فى تطوير الفن الزخرفى ، وبخاصة وأنه تعبير عن حكم جليلة أو آية كريمة أو أحاديث تضيف إلى الجمال الزخرفى روعة الدلالة الأدبية .. وكذلك كل فن جمالى يكون فى مستوى عظمته بمستوى دلالاته .

* *

● فى المساجد :

ولا تزال المساجد تحمل روعة الفن الإسلامى فى مشارق الأرض ومغاربها ، قديماً وحديثاً ، حتى فى البلاد الفقيرة النامية ، فى الهند وباكستان والقاهرة والأندلس كالحمراء ومساجد قرطبة وغرناطة وإشبيلية .

وفى العصر الحديث (١٩٨٩) مسجد الحسن الثانى ، وهو تحفة معمارية إسلامية حضارية ، شُيِّد فى الدار البيضاء على مساحة إجمالية تبلغ (١٥٣٫٧٠٠) متر مربع ، ومئذنته تقام جنوبى المسجد على قاعدة مساحتها ٦٢٥ متراً مربعاً ، وترتفع فى الأفق ١٧٥ متراً . وتشتمل على سلم ومصعد ، وفى أعلاها أشعة ليزر التى يمكن مشاهدتها على بعد ٣٥ كم ، ويستوعب فى داخله من المصلين (٢٠٠ ألف مصلٍّ) ، ومع الصحن الخارجى يستوعب (١٠٠٫٠٠٠ مصل) ، وقبالته مكتبة إسلامية وكُتّاب لتحفيظ القرآن [١] .

* * *

---

(١) الأهرام : ١٩٨٩/٣/٧

صورة لتخطيط المدن الإسلامية

قال جورجى زيدان فى « تاريخ التمدن الإسلامى »[1] :

« نريد بالمدن الإسلامية ما بناه المسلمون من المدن لأنفسهم ، وهى غير ما افتتحوه من مدائن الروم والفُرس .

والمدن الإسلامية عديدة فى العراق والشام ومصر وإفريقيا والأندلس وغيرها . ومنها ما لم يزل عامراً إلى اليوم كالبصرة وبغداد والقاهرة ، ومنها ما انقرض وعفت آثاره كالفسطاط بمصر ، والزهراء بالأندلس .

كان المسلمون فى صدر الإسلام عرباً أهل خيام وماشية وخيل ، يكرهون الإقامة داخل الأسوار وينفرون من الانحصار فى المدن ، فلما تأيّد الإسلام واجتمع العرب على فتح الأمصار فى العراق والشام ومصر ، كانوا فى بادىء الرأى إذا ساروا إلى غزو أو فتح اصطحبوا نساءهم وعيالهم ، فإذا فتحوا بلداً أقاموا فى ضواحيه بخيامهم وأخبيتهم ، وجعلوا هذا الموضع معسكراً لهم .

وكان عمر بن الخطاب يشترط على جنده المقيمين فى الأمصار ألا يقيموا فى مكان يحول الماء فيه بينهم وبينه ، حتى إذا أراد أن يركب راحلته إليهم ركب . كذلك فعل عمرو بن العاص فى الفسطاط . وسعد بن أبى وقاص فى الكوفة والبصرة ، وكانت كلها مضارب لجند العرب الفاتحين يعبّرون عنها بالرباط أو المعسكر . فإذا طال بهم المقام اختطوا الأسواق ، وبنوا المنازل والقصور ، ذلك كان شأنهم فى صدر الإسلام ، فبنوا البصرة ، والكوفة ، والفسطاط ، على هذه الصورة .

---

(١) الجزء الثانى ص ١٧٥

فلما ضخم مُلْك العرب وتعددت دول المسلمين ، صاروا يختطون المدن ، تثبيتاً لفتوحاتهم كما فعل عقبة بن نافع عندما اختط القيروان في إفريقيا (تونس الحالية) تثبيتاً للفتح الإسلامي لهذه الناحية ، أو تحصناً بهم من أعدائهم - كما فعل المنصور باختطاطه بغداد ، فإنه بناها حصناً له ، وكذلك فعل الفاطميون بالقاهرة .

* *

● الاستجمام :

وكثيراً ما كان الخلفاء يبنون المدن للتنزه بها والابتعاد عن الغوغاء مثل سامراء ، والمتوكلية ، والزهراء ، وغيرها .

● تعقيب : (الكاتب خانه التعبير هنا . وليس له دليل على إرادة الابتعاد عن الغوغاء) وإليك نماذج لتخطيط هذه الأمصار :

● تصميم البناء :

يقول « لويس » [١] : إن المنورين من البرتغال اليوم يقدّرون الأمة العربية المجيدة حق قدرها ، ويدرسون ما أبقته آثارها الخالدة ، ولا سيما هندستها في المباني التي أصبحت خاصة بها ، تفتخر بها الشعوب المتمدنة لعهدنا ، وتعجب منها .

البصرة

قال « جورجي زيدان » : « مصّرها عتبة بن غزوان سنة ١٦ للهجرة .. على الضفة الغربية للفرات وبنوها أولاً بالقصب ، ثم خافوا الحريق فبنوها باللَّبِن بإذن عمر . وجعلوا المدينة خِططاً بحسب القبائل . لكل قبيلة خِطة ، وجعلوا عرض

(١) من علماء المشرقيات في البرتغال - انظر : الإسلام والحضارة العربية : ٢٦٣/١

شارعها الأعظم ستين ذراعاً وهو مِرْبدها ، وعرض ما سواه من الشوارع عشرين ذراعاً ، وجعلوا عرض كل زقاق سبعة أذرع ، ووسط كل خِطة رحبة فسيحة لمرابط خيولهم وقبور موتاهم ، وتلاصقوا بالمنازل .

ونظراً لموقعها التجارى [كانت فرضة للعراق ووسطاً بين الشام وفارس] أسرع إليها العمران واتخذتها الحكومة مقراً لإمارة العراق فى أيام بنى أمية ، فعمرت البصرة حتى بلغت مساحتها فى إمارة خالد بن عبد الله القسْرى فرسخين فى فرسخين ، أى ٣٦ ميلاً مربعاً فى أرض منبسطة لا جبال فيها ، وذلك أوسع من مدينة القاهرة (١٩.٣) (١)

وتجاراتها تمتد شرقاً إلى الهند والصين ، وغرباً إلى أقصى بلاد المغرب ، وجنوباً إلى الحبشة ، وكانت مياه البصرة مرسى مئات من السفن التجارية حتى ضرب المثل فى ذلك فقالوا : « وأبعد الناس نجعة فى الكسب بصرى وخوزى ، ومن دخل فرغانة (في الشرق) والسوس الأقصى (فى الغرب) فلا بدَّ من أن يرى بها بصرياً أو خوزياً (من أهل خوزستان) أو حيرياً (من أهل الحيرة) وشأنهم فى ذلك شأن السوريين اليوم ، أو هو دأبهم من عهد الفينيقيين (٢) .

وقال أيضاً : « وتكاثرت الثروة فيها بتكاثر الناس القادمين إليها للاتجار أو الإقامة ، فابتنوا فيها القصور والحدائق ، وأنشئوا الميادين والبرك » .

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامى : ١٧٦/٢ . ١٧٧ ، وانظر : كتاب الدكتور الصالح أحمد العلى « التنظيمات السياسية والاقتصادية فى البصرة » بغداد - ١٩٥٢ ، وانظر : فصل الملاحة البحرية فى كتاب آدم ميتز « الحضارة الإسلامية » فى القرن الرابع ، الترجمة العربية : ٣١٢/٢ وما بعدها .

(٢) تاريخ العالم للسير « چون . أ . هامرتن » : ٢٦٤/٦ - طبع النهضة المصرية .

قال ابن حوقل : « وهى موصوفة بالمجالس الحسنة ، والمناظر الأنيقة ، والميادين العجيبة والفواكه البديعة ، والبرك الفسيحة ، لا تخلو من المتنزهين ، ولا تعرى من المتظرفين منحدرين ومصعِّدين .. » .

*　*

بغداد

قال جورجى زيدان فى « تاريخ التمدن الإسلامى » [(١)] : « هى عاصمة العباسيين بناها المنصور سنة ١٤٥ هـ فى الجانب الغربى بشكل مستدير وجعل حواليها قطائع لحاشيته ومواليه وأتباعه . فلما كانت أيام المهدى جعل معسكره فى الجانب الشرقى من دجلة ، وسمى ذلك المكان عسكر المهدى . ثم انتقل إليه الوجهاء وأهل الدولة وبنوا فيه ، وانتقلت الخلافة إلى الجانب المذكور وامتدت أبنية الخلفاء وحدائقها على ضفة النهر ، ويسمى جانب بغداد الشرقى « الرصافة » ، والجانب الغربى « الكرخ » .

« وبلغت بغداد معظم عمارتها فى أيام المأمون حتى امتدت أبنيتها وبساتينها على بقعة قالوا : إن مساحتها ٥٣٫٧٥٠ جريباً ، منها ٢٦٫٧٥٠ جريباً فى الجانب الشرقى و ٢٧٫٠٠٠ فى الجانب الغربى .

والجريب : ٣٦٠٠ ذراع مربع ونسبته إلى الفدان كنسبة ١٠٠ إلى ٣٣٣ وثلث ، فتكون مساحة بغداد كلها نحو (١٦٫٠٠٠) فدان وهو شىء كثير ، ولكن يظهر أنها كانت عبارة عن مدن متلاصقة . قال الخطيب البغدادى فى تاريخه : إنها أربعون مدينة ، وإن الحمامات بلغ عددها فى أيام المأمون (٦٥٫٠٠٠) حمام .

وقال صاحب « سير الملوك » : « وكان عدد الحمّامات فى ذلك الوقت ببغداد ستين ألف حمّام ، وأقل ما يكون فى كل حمّام خمسة نفر : حمّامى وقَيِّم

(١) الجزء الثانى ص ١٨٢ وما بعدها .

وزبال ووقاد وسقاء يكون ذلك ثلاثمائة ألف رجل ، وذكر أنه يكون بإزاء كل حمّام خمسة مساجد يكون ذلك ثلاثمائة ألف مسجد ، وتقدير ذلك أن أقل ما يكون فى كل مسجد خمسة نفر ، يكون ذلك ألف ألف وخمسمائة ألف إنسان » .

وقد يؤيد ذلك ما رواه الطبرى فى أثناء كلامه عن الفتنة التى وقعت فى بغداد سنة ٢٥٥ هـ قال : « وقيل إنه عبر الجسرين من العامة فى ذلك الوقت (. . . ر. . ١) إنسان فى الرواريق » .

فإذا كان هذا عدد الذين عبروا النهر فما قولك بمن لم يعبروا ؟ فلا نبالغ إذا جعلنا عدد سكان بغداد فى ذلك العهد نحو مليون ونصف أو مليونين .

ناهيك بما كان من العمارة حول بغداد وفى سائر بلاد السواد ، قال ابن حوقل وقد رآها فى القرن الرابع للهجرة : « ومن بغداد والكوفة سواد مشتبك غير متميز تخترق إليه أنهار من الفرات » .

وهناك مدائن أخرى من بناء المسلمين ذات شأن ، كالقيروان فى بلاد المغرب ، وواسط فى العراق ، وغيرهما فى مصر والشام وفارس . ناهيك بالمدائن التى كانت عامرة قبل الإسلام ، وقد نزل فيها المسلمون وزادوا عمارتها ، مثل دمشق الشام ، وقرطبة ، وغرناطة ، وطليطلة ، والإسكندرية

وأنهارها على أيام بلال بن أبى بردة (سنة ١١٨ هـ) زادت على . . . ر. ١٢ نهر تجرى بها الزوارق . قال « الاصطخرى » : « وقد كنت أنكر ما أذكر من هذه الأنهار فى أيام بلال حتى رأيت كثيراً من تلك البقاع . فربما رأيت فى مقدار رمية سهم عدداً من الأنهار صغاراً تجرى فى كلها زوارق صغار ، ولكل نهر اسم ينسب إلى صاحبه الذى احتفره . أو إلى الناحية التى يصب فيها ، فجوزت أن يكون ذلك فى طول هذه المسافة وعرضها » .

وهم لا يريدون بالبصرة المدينة فقط التى ذكرنا أن مساحتها ٣٦ ميلاً مربعاً

وإنما يضمون إليها ما يتبعها من المغارس إلى عبادان عند بحر فارس . قال ابن حوقل والاصطخرى : « ولها نخيل متصلة من عبدسى إلى عبدان - نيفاً وخمسين فرسخاً متصلة ، لا يكون الإنسان منها إلا وهو فى نهر ونخيل ، أو يكون بحيث يراها » .

* *

الفسطاط

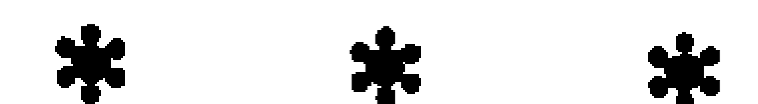
قال « جورجى زيدان » : « بناها عمرو بن العاص سنة ١٨ هـ وجعل فيها نحو عشرين حارة دعاها خططاً ، وأقام أربعة من كبار رجاله ينزلون الناس فى الخطط المذكورة بحسب أحزابهم وقبائلهم .

« ثم أخذت الفسطاط تتسع وتزداد عمارة كلما رسخت قدم المسلمين فى البلاد ، حتى بلغ طولها على ضفة النيل ثلاثة أميال ، وذكر مؤرخو العرب عن مقدار عمارتها إنه كان فيها ...ر٣٦ مسجد ، و ...ر٨ شارع مسلوك ، و ١١٧٠ حماماً . وبلغ من تزاحم الناس فى الفسطاط أن جعلوا المنازل طبقات عديدة بلغ بعضها خمس طبقات إلى سبع ، وربما سكن فى البيت الواحد ٢٠٠ من الناس ، وبلغت نفقة البناء على بعضها ...ر٧٠٠ وهى دار الحرم لخمارويه .

واشتهر من تلك الأبنية دارٌ ضُرِبَ المثل بعظمتها وغنى أهلها تسمى : « دار عبد العزيز » كانت مطلة على النيل ، بلغ من سعتها وكثرة ساكنيها أنهم كانوا يصبون فيها أربعمائة راوية كل يوم . ونقل بعضهم أن الأسطال التى كانت بالطاقات المطلة على النيل بلغ عددها ...ر١٦ سطل مؤيدة ببكر وأطناب لها ترخى وتملأ » .

ثم تحدث عن خلو المدينة من بطالة الصناع وقال :

« وفى ذلك دليل على غني أهل الفسطاط وترفهم ، ومن هذا القبيل استكثارهم من الفرش ، فقد يقتنى أحدهم ألف فرشة أو عشرة آلاف فرشة ، وذكروا أن رجلاً من أهل الفسطاط عنده ثلاثمائه فرشة ، كل فرشة لحَظيّة من « الإماء » وكذلك كانوا يفعلون بالثياب ونحوها ، وقد تكون أثمانها فاحشة ، فلا يبالون لغناهم » .



الأعياد فى القرن الرابع الهجرى

قال الأستاذ « آدم متز Adem Mez » أستاذ اللغات الشرقية بجامعة بال السويسرية :

« تدل الأعياد عند المسلمين على مقدار رقة المظهر الإسلامى الذى يحيط بالحياة العامة . فقد كان المسلمون يحتفلون بجميع الأعياد النصرانية (فى بعض البلدان) وكان معظم هذه الأعياد النصرانية صورة جديدة لمراسم قديمة للبلاد . وكثير من المواضع التى كان يحج إليها المسيحيون فى مصر وفى العراق . إنما كانت مواضع مقدسة عند الوثنيين من قبل ، ولم تكن أعياد القديسين التى كانت تُعمل فى الأديرة الناشئة هناك إلا صورة جديدة لأعياد الآلهة القدماء .

ولم يرض الذين دخلوا فى الإسلام من أهل تلك البلاد بأن يُحرموا من الاحتفال بهذه الأيام التى كانت تزدهى بها حياة آبائهم الوثنيين من قبل ، ولكن المسلمين - خلافاً للكنيسة المسيحية - أنِفوا فى الغالب من وضع الأساطير ، وقد تركوا النصارى يتصرفون فى أمورهم الدينية من غير تدخل فى ذلك ، واشتركوا فى الجانب الاجتماعى المسلّمى من تلك الأعياد ، كما فعل آباؤهم من قبل » [1] .

وفى أيام الدولة الفاطمية بمصر كان يفرق على أرباب الرسوم ورجال الدولة جامات الحلاوة القاهرية وقربات الجلاب وطيافير الزلابية ، وماء الورد ، والسمك البورى .

وكانت توقد الحوانيت والشوارع بالفوانيس ، ويعطى للفقراء فوانيس يحملونها فى أيديهم ، ولهم على ذلك درهم ، وكان يحتفل بعيد الغطاس بمصر ، « وكان لأهل مصر وأهل الملل والمذاهب فى هذا العيد من الطيبة والفرح ما لا يكون لهم فى غيره من أيام السنة وأعيادها » [2] .

---

(١) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى : ٢/٢٣٦   (٢) المرجع السابق : ٢/٢٤٢

* عيد الخروج :

وكان من الأعياد الكبرى - عند النصارى بمصر - عيد سرعان ما اتخذه المسلمون ، وهو عيد الخروج لسجن يوسف بالجيزة ، وكانت عادة العامة والسوقة أن يطوفوا - قبل الخروج للسجن - أسواق البلد بالطبول والبوقات ، ليجمعوا من التجار ما ينفقونه فى خروجهم .

* عيد الشهيد :

ومما كان يعمل بمصر عيد الشهيد فى الثامن من مايو ، وكان اجتماع الناس لهذا العيد بناحية شبرا ، وكان يباع فيه من الخمر خاصة بما يزيد على مائة ألف درهم فضة ، وأبطله السلطان الناصر محمد بن قلاوون فى القرن الثامن العربى .

* عيد النيروز فى أغسطس :

وكانت العادة بالإجمال أن يحتفلوا بعيد النيروز - وهو مبدأ السنة الشمسية - بتبادل الهدايا ، وكان خلفاء الفاطميين يهدون للناس فيه الكسوات والطعام .

* عيد رأس السنة القبطية والفارسية :

فى عيد رأس السنة القبطية فى آخر أغسطس ، وعيد رأس السنة الفارسية والشامية وهو أول الربيع : كان يرش الناس بعضهم بعضاً بالماء . ويمزحون مزحاً غير مهذب . فمنع الخليفة ذلك عام ٣٦٣ هـ (٩٧٤ م) ، واستمر يؤدب الناس ثلاثة أيام . فلم ينفع التأديب وظل جارياً فى كل عام حتى أبطله السلطان برقوق فى أواخر القرن الثامن الهجرى . ولكن لا يزال الرش بالماء يعمل إلى اليوم عند النصارى فى عيد الصعود ويسمى « خميس الرشاش » (١) .

* عيد المهرجان :

أول الشتاء ، وكان بعد عيد النيروز بمائة وأربعة وتسعين يوماً « عيد المهرجان » .

---

(١) المرجع السابق : ٢/٢٤٧

وظل - إلى جانب النيروز - أكبر الأعياد ، وكان الناس يتهادون فيه كما يتهادون فى النيروز . وكان القواد ورجال دار الخلافة ، تُخلع عليهم فيه ملابس الشتاء . وكان العامة يغيرون فيه الفرش والآلات وكثيراً من الملابس ، وكان هذا العيد يمتاز خاصة بأن الرعية يهدون فيه إلى السلطان [١] .

* عيد الأضحى وعيد الفطر :

قال « آدم ميتز » [٢] : « أما العيدان الدينيان عند المسلمين فهما عيد الأضحى وعيد الفطر . وكانا إلى جانب النيروز الفارسى أكبر الأعياد ، عند أهل بغداد فى القرن الرابع الهجرى ، وكان أهل البصرة يسمنون الأضاحى سنة وأكثر . ثم تباع لعيد النحر ، الواحدة منها بعشرة دنانير ، ويحكى أنه فى آخر يوم من رمضان سنة ٣٨٠ هـ حمل « يأنس الصقلبى » صاحب الشرطة السفلى السماط (مائدة طويلة) وقصور السكر والتماثيل وأطباقاً فيها تماثيل من الحلوى ، وحمل أيضاً « على بن سعد » المحتسب القصور وتماثيل السكر وطافا بها فى شوارع القاهرة ، وكانت تعمل أسمطة أخرى فى القصر يحضرها الخليفة بنفسه فى يوم عيد الفطر وعيد النحر . ففى عيد الفطر كان يعمل سماط طوله ٣٠٠ ذراع فى سبعة أذرع من الخشكنان والفانيد والبسند ، فإذا صلى الخليفة الفجر جلس ومكّن الناس من ذلك السماط الممدود ، فيهجمون عليه وينهبونه ويحملونه فى مرح وفرح .

وكان هذان العيدان هما العيدان الوحيدان الكبيران اللذان كانا يُحتفل بهما بالأبهة الإسلامية احتفالاً رسمياً . وكانا لذلك يبلغان منتهى الروعة والأبهة فى البلاد التى يكون فيها الشعور الإسلامى علي أقواه مثل طرسوس ، حيث كان يأتى غزاة المسلمين من كل ناحية فى المملكة الإسلامية حتى كان عيداها يعتبران من محاسن الإسلام ، ولما ضاعت من المسلمين طرسوس بقيت صقلية مشهورة بحسن عيديها ، وكان يُذبح فى عيد النحر حيوانات كثيرة .

---

(١) نفس المرجع : ٢٤٨/٢

(٢) المرجع نفسه : ٢٤٩/٢

* سُنَّة تفطير الصائم :

وكان شهر رمضان هو الشهر الذى يتجلى فيه منتهى الكرم عند المسلمين ، ويحكى عن الوزير ابن عباد أن داره كانت لا تخلو فى كل ليلة من ليالى رمضان من ألف نفس تفطر فيها ، وأن صدقاته وقرباته فى هذا الشهر كانت تبلغ مبلغ ما ينفق منها فى جميع شهور السنة .

* ابتداع المولد النبوى وغيره :

ثم قال « آدم ميتز » [(١)] : وكان ازدياد التكريم للنبى - عليه السلام - بين أهل الصلاح والورع سبباً فى أن صار يُحتفل بمولده حوالى (عام ٣٠٠ هـ) وكان ذلك بدعة فى نظر المتمسكين بالعادات الإسلامية الأولى ، ويحكى عن الكرجى (المتوفى عام ٣٤٣ هـ = ٩٥٤ م) - وكان من الزهاد ، المتعبدين - أنه كان لا يفطر إلا فى العيدين وفى يوم مولد النبى عليه السلام .

وفى القرن السادس الهجرى أبطل « الأفضل ابن أمير الجيوش » أمر الموالد الأربعة : النبوى والعلوى والفاطمى ومولد الإمام الحاضر .

على أن أول مَن احتفل بمولد النبى عليه السلام احتفالاً عظيماً هو - كما يقال - الأمير أبو سعيد مظفر الدين الأربلى (المتوفى عام ٦٣٠ هـ = ١٢٣٣ م) وفى ذلك العيد كانت العادة جارية بقراءة السيرة النبوية مع إيثار الكلام فى قصة المعراج ، فكان ذلك عوناً كبيراً على تكوين السيرة النبوية .

وكان يفد إلى هذا العيد الذى يقيمه الأمير طوائف الناس من بغداد والموصل والجزيرة وسنجار ونصيبين ، بل من فارس ، منهم العلماء والمتصوفون والوعاظ والقراء والشعراء ، وهناك يقضون فى أربيلا من شهر المحرم إلى أوائل ربيع الأول . وكان الأمير يقيم فى الشارع الأعظم مناضد عظيمة من الخشب

---

(١) المرجع السابق : ٢/ ٢٥٠ .

ذات طبقات كثيرة بعضها فوق بعض تبلغ الأربع والخمس ويزينها ويجلس عليها المغنون والموسيقيون ولاعبو الخيال حتى أعلاها ، ولم يكن للناس شغل إلا التمشى أمام تلك المناضد ، والتمتع بما يُقدَّم لهم ، وكان الأمير فى ليلة المولد نفسها يركب فى الشارع وبين يديه الشموع العظيمة كلٌ منها مربوط فى بغل وكان العيد ينتهى بموكب ووليمة .

* الأعياد العائلية :

قال « آدم ميتز » : وكان أهم الأعياد العائلية عيد الختان ، ولم يكن قد صار بعد فى (القرن الرابع الهجرى) عيداً خاصاً ، لأنه كان لا يزال محتفظاً بالكثير من خصائص أعياد بلوغ الشباب عند القدماء ، وكان الرجل يكره أن يختن لابنه منفرداً ، وكانت حفلات الزواج أشهر أعياد قصور الخلافة من قبل إلى جانب حفلات الختان .

وأخيراً .. كان من الأعياد يوم الاحتجام وفيه يُهدى أصحاب المحتجم له الهدايا ، ويُعمل له أجود الطعام ، وكان الحلاق هو الذى يقوم بهذه العملية ، وكان يعطي على ذلك ديناراً (حوالى عام ٣٠٠ هـ = ٩١٢ م) .

* الأعياد المشروعة :

ويلاحظ أن الإسلام شرع عيدى الفطر والأضحى ، ولكل منهما شعائر دينية تخصها كصلاة العيد وزكاة الفطر ، والأضحية فى عيد الأضحى ، وأما هذه الأعياد التى ذكرها « ميتز » فهى من البدع التى ظهرت إبَّان ضعف الحماس الدينى .

* * *

الألقاب .. والتكلف فى المكاتبات

● متى ظهر التهافت على الألقاب ؟

قال « آدم ميتز » فى « الحضارة الإسلامية فى القران الرابع الهجرى » [1] :

ظهر التهافت الشديد على الألقاب والتكلف فى أساليب المكاتبات فى القرن الرابع وبقى إلى اليوم ، وفى المكاتبات الرسمية كانت تُوجَّه عناية كبيرة إلى العنوانات وتعظيم شأن المخاطَب ، وإلى الإسهاب فى ذلك . على حين كان يُختَم الخطاب ويوقَّع عليه فى إيجاز ، على خلاف عادة الأوروبيين .

وقد بدأ هذا منذ القرن الثالث الهجرى . وذلك أن العادة كانت جارية فى المكاتبة بين الناس بأن يقال : من فلان إلى فلان ، أو من أبى فلان إلى أبى فلان ، ولم يكن على شىء من العنوانات دعاء ، حتى جاء الفضل بن سهل فى خلافة المأمون ، فكتب كتاباً عنوانه « لأبى فلان أبقاه الله ، من أبى فلان » ، ثم استعمل الناس بعد ذلك الدعاء على عنوانات الكتب .

فكان يكتب الوزير إلى أمير الشام وأجنادها : « أعزك الله ومدَّ فى عمرك ، وأتم نعمته عليك وإحسانه إليك » . ويكتب إلى الذرَّاع (مهندس المساحة) والمهندسين : « حفظك الله وعافاك » .

وكان الوزراء والكبراء فى أول القرن الرابع يَخاطَبون بسيدنا أو مولانا ، ويُستعمل في ذلك ضمير المخاطَب أو المفرد ، وفي عام ٣٧٤ هـ (٩٨٤ م) كان ابن سعدان الوزير يخاطِب الوزير ابن عباد بـ « الصاحب الجليل » ، والصاحب ابن عباد يخاطب ابن سعدان بـ « الأستاذ مولاى ، ورئيسى » ، وكان عيسى بن نسطورس - وزير العزيز بالله - فى مصر يُخاطَب بـ « سيدنا الأجل » .

---

(١) الجزء الأول ص . ١٤ - ١٤٣

ويقال إن أبا الحسن كاتب الخليفة القادر بالله (٣٨١ - ٤٢٢ هـ = ٩٩١ - ١٠٣١ م) هو مخترع لفظ الحضرة فى المخاطبة . وفى هذه المسألة الصغيرة أيضاً نجدنا حتى الآن نسير على رسم القرن الرابع .

وهذا الكاتب هو مخترع عبارة الحضرة العالية الوزارية ، وهو أول مَن أخرج عبارة « الحضرة المقدسة النبوية » فى الكلام عن الخليفة ، وأشرك بذلك عبارة « السُدَّة النبوية » ، ثم كتب عن الخليفة بلفظة غريبة غير مستقيمة الدلالة وهى « الخدمة » وتصَرَّف فى ذلك حتى قال : « قالت الخدمة ، وفعلت الخدمة ، وسُئلت الخدمة » ، حتى رأيت بخط أبى الحسن بن أبى الشوارب فى ترجمة رقعة : « خادم الخدمة الشريفة فلان بن فلان » .

وقد لقب الخليفة القائم وزيره (قُتِل عام ٤٥٠ هـ = ١٠٥٨ م) بألقاب هى : رئيس الرؤساء ، وشرف الوزراء ، وجمال الورى .

أما بين القضاة ، فقد بقى الرسم القديم جارياً ، فكان قاضى القضاة يوقِّع للقضاة بما يقول فيه : أبو فلان فلان بن فلان القاضى . أيَّده الله . يفعل كذا - وإلى قاضى النواحى : « فلان بن فلان الحاكم » ، بغير كنية ولا دعاء ولا ذكر قضاء .

وفى عام ٤٢٩ هـ (١٠٢٧ م) لقب قاضى القضاة الماوردى بلقب « أقضى القضاة » ، وجرى من بعض الفقهاء إنكار لهذه التسمية ، وقالوا : لا يجوز أن يسمى به أحد . هذا بعد أن كتبوا بخطوطهم بجوار تلقيب « جلال الدولة » بملك الملوك الأعظم فلم يلتفت إليهم الماوردى واستمر له هذا اللقب إلى أن مات ، ثم تلقب به القضاة بعده .

* *

* الثورة على الألقاب :

واسترسل « ميتز » قائلاً : قال أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمى (المتوفى عام ٣٨٣ هـ = ٩٩٣ م) فى هذه الألقاب :

ما رأيتُ بنى العباس قد فتحوا　　من الكُنى ومن الألقاب أبوابا

ولقبوا رجلاً لو عاش أولهم　　ما كان يرضى به للحُشِّ بوابا

قلَّ الدراهم فى كفَّىْ خليفتنا　　هذا فأنفق فى الأقوام ألقابا

وقد حاول الخليفة الحاكم بأمر الله أن يلغى الألقاب فبعد أن سخا فى منح الألقاب على اختلاف أنواعها أسقطها عام ٤٠٨ هـ (١٠١٣ م) ما عدا ألقاب تسعة نفر هم أكبر حملة الألقاب ولكنه أعاد الألقاب بعد قليل .

* * *

● التجارة مع الصين :

كانت تجارة العرب فى الجاهلية والإسلام تربط بين أطراف العالم والقارات المعروفة آنذاك . وهى : آسيا وإفريقيا وأوروبا ، ولا غرو فقد اشتهر بين المسلمين حديث : « تسعة أعشار الرزق فى التجارة » ، وفى قرآنهم سورة قريش .

وقد تحدث « ليونيل جايلز » عن الامتداد التجارى الإسلامى العربى حتى بلاد الصين وجيرانها فقال : « وهناك وثيقة أخرى أصدرها موظف صينى عام ١١٧٨ ميلادية توضح أن معظم التجارة بين الصين وأرخبيل الملايو كانت لا تزال فى أيدى العرب ، وبعض الأجانب الآخرين »[١] .

* * *

(١) تاريخ العالم للسير « چون . أ . هامرتن » : ٢٦٤/٦ ، طبع النهضة المصرية .

الفصل الثالث

تحضير الإسلام للغرب

- حال الغرب عند الفتح الإسلامى .
- ترجمة العلوم العربية .
- كيف واجه العرب المدنية اللاتينية ؟
- حضارة الإسلام فى الغرب .
- تعارف الإسلام والمسيحية .
- ممالك الإسلام واحات الحرية .
- حرب الحقد المسيحى ..
- إحراق الكتب الثقافية ..
- الإكراه على المسيحية .
- تصوير الغربيين للحقد المسيحى .

حال الغرب عند الفتح الإسلامى

قال « لافيس » و« رامبو » فى « التاريخ العام » :

كانت إنجلترا الإنجلو سكسونية فى القرن السابع الميلادى إلى ما بعد العاشر فقيرة فى أرضها ، منقطعة الصلات بغيرها ، سمجة ، وحشية ، تبنى البيوت بحجر غير نجيب ، وتشيدها من تراب مدقوق ، وتجعلها فى وطء من الأرض : مساكن ضيقة المنافذ ، غير محكمة الإغلاق ، واصطبلات وحظائر لا نوافذ لها . تقرض الأمراض والأوبئة المتكررة المواشى والسائمة ، وهى المورد الوحيد . ولم يكن الناس أحسن مسكناً وأمناً من الحيوان ، يعيش رئيس القبيلة فى كوخه مع أسرته وخدمه ومَن اتصل به ، يجتمعون فى قاعة كبرى ، فى وسطها « كانون » ينبعث دخانه من ثقب فتح فى السقف فتحة غليظة ، ويأكلون كلهم على خوان واحد . وينام جميع المجتمعين فى تلك القاعة على الأرض ، أو على « دكات » ، واضعاً كل فرد سلاحه فوق رأسه ، لأن اللصوص كانوا من الجرأة بحيث يستوجب ذلك على الناس أن يقفوا لهم بالمرصاد كل حين ، لئلا يؤخذوا على غِرّة .

وكانت أوروبا فى ذلك العهد خاصة بالغابات الكثيفة ، متأخرة فى زراعتها ، تنبعث من المستنقعات الكثيرة فى أرباض المدن روائح قتالة تجتاح الناس وتحصدهم ، وكانت البيوت فى باريس ولندرا تبنى من الخشب والطين المعجون بالقش والقصب ، ولم يكن فيها منافذ ولا غرف مدفئة ، وكانت البسط مجهولة عندهم ، لا بساط لهم غير القش ينشرونه على الأرض ، ولم يكونوا يعرفون النظافة ، ويلقون بأحشاء الحيوان وأقذار المطابخ أمام بيوتهم فتتصاعد منها روائح مزعجة .

وكانت الأسرة الواحدة تنام فى حجرة واحدة تضم الرجال والنساء والأطفال ، وكثيراً ما كانوا يؤوون معهم الدواجن . وكان السرير عندهم عبارة عن كيس من القش فوقه وسادة من القش . ولم يكن للشوارع مجار ولا بلاط ولا مصابيح .

قال « داربر » : وكان من أثر ذلك أن عمت الجهالة أوروبا ، وساورتها الأوهام ، فانحصر التداوى فى زيارة الأماكن المقدسة (كالأضرحة) ، ومات الطب ، وحييت أحابيل الدجالين ، وكلما دهم البلاد وباء فزع رجال الدين إلى الصلاة ، وأغفلوا أمر النظافة ، فكانت الأوبئة تفتك بهم فتكاً ذريعاً ، وقد زارت أوروبا مراراً فاجتاحت الملايين من أهلها فى أيام قليلة .

ويصور « جوستاف لوبون » حال أوروبا ، والإفناء الكنسى للعمران ، وكيف كان تأثير الإسلام على الوضع الأوروبى وتطويره إلى مستوى أفضل فيقول فى كتابه « حضارة العرب » :

« كان تأثير العرب فى الغرب عظيماً ، وإليهم يرجع الفضل فى حضارة أوروبا ، ولم يكن نفوذهم فى الغرب أقل مما كان فى الشرق ، ولكنه كان يختلف عنه ، أثّروا فى المشرق بالدين واللغة والفنون ، أما فى الغرب فلم يؤثروا فى الدين ، وكان تأثيرهم فى الفنون واللغة ضعيفاً (طبعاً فيما عدا الأندلس) . أما تأثيرهم بتعاليمهم - العلمية والأدبية والأخلاقية - فكان عظيماً .

« ولا يتأتى للمرء معرفة التأثير العظيم الذى أثره العرب فى الغرب ، إلا إذا تصور حالة أوروبا فى الزمن الذى دخلت فيه الحضارة .

وإذا رجعنا إلى القرنين التاسع والعاشر للميلاد ، يوم كانت المدنية الإسلامية فى إسبانيا زاهرة باهرة ، نرى أن المراكز العلمية الوحيدة فى عامة ديار الغرب ، كانت عبارة عن مجموعة أبراج يسكنها سادة نصف متوحشين ، يفاخرون بأنهم أميون ، لا يقرأون ولا يكتبون ، وكانت الطبقة العالية المستنيرة فى النصرانية عبارة عن رهبان فقراء جهلة ، يقضون الوقت فى ديرهم بالتكسب من نسخ كتب القدماء ، ليبتاعوا ورق البردى اللازم لنسخ كتب العبادة .

« وطال عهد الجهالة فى أوروبا ، وعمَّ تأثيره حتى لم تعد تشعر بتوحشها ، ولم يبدُ فيها بعض الميل للعلم إلا فى القرن الحادى عشر ، وبعبارة أصح فى القرن الثانى عشر ، ولما شعرت بعض العقول المستنيرة قليلاً بالحاجة إلى نفض كفن الجهل الثقيل الذى كان الناس ينوءون تحته ، طرقوا أبواب العرب يستهدونهم ما يحتاجون إليه ، لأنهم كانوا وحدهم سادة العلم فى ذاك العهد ، ولم يدخل العلم أوروبا فى الحروب الصليبية وعن طريقها لأول مرة كما هو الرأى الشائع ، بل دخل بواسطة الأندلس وصقلية وإيطاليا » { وقد كانت كلها مراكز للحضارة الإسلامية } .

* * *

● ترجمة العلوم العربية :

قال « لوبون » : وفى سنة ١١٣٠ م أنشئت مدرسة للترجمة فى طليطلة بعناية « ريموند » رئيس الأساقفة ، وأخذت تترجم إلى اللاتينية أشهر مؤلفي العرب ، وعظم نجاح هذه الترجمات ، وعندئذ عرف الغرب عالماً جديداً ، ولم تفتر الحركة فى هذه السبيل خلال القرن الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر . وقد نقل إلى اللاتينية كتب اليونان التى كان المسلمون قد ترجموها أمثال كتب جالينوس وأبقراط وأرسطو وإقليدس وأرشميدس وبطليموس .

وقد عدّ « لكلرك » فى تاريخ الطب العربى ثلاثمائة كتاب نقلها الغرب من العربية إلى اللاتينية ، فإلى العرب ، وإلى العرب وحدهم ، لا إلى رهبان القرون الوسطى ممن كانوا يجهلون حتى وجود اللغة اليونانية ، يرجع الفضل فى معرفة الأقدمية ، والعالَم مدين لهم - على وجه الدهر - لإنقاذهم هذا الكنز الثمين .

يقول « ليترى » : لو حُذف العرب من التاريخ لتأخرت نهضة الآداب عدة قرون فى الغرب [١]

---

(١) بل لما وجدت فى الغرب نهضة مطلقاً .. لأن تفجير أنوار المعرفة المتكاملة لا تشرق إلا من السماء .. وليس بعد نبى الإسلام نبوة .

ثم قال « لوبون » : تمتعت إسبانيا بمدنية سامية بفضل العرب ، بينما كانت بقية أوروبا غارقة في التوحش العظيم ، ولو مشى الغرب تحت راية العرب لتسامت منزلته ، ولو رقَّت أخلاق أهله ما وقعوا في الحروب الدينية . ومذبحة « سان بارتلمي » و« ديوان التحقيق » ، وكل ما شاكل ذلك من المصائب التي أغرقت أوروبا بالدماء عدة قرون ، وما عرف المسلمون ما يشبهها في أرضهم :

وقال أيضاً : كان تأثير العرب في عامة الأقطار التي احتلوها عظيماً جداً في الحضارة . ولعل فرنسا كانت أقل حظاً في ذلك : فقد رأينا الممالك تتبدل صورتها حينما خفق عَلَم الرسول الذي أظلها بأسرع ما يمكن ، وشاهدنا فيها العلوم والفنون والآداب والصناعة والزراعة تزهر فيها أي إزهار :

وهكذا قال « ديبل » : راجع خلفاء بني أمية أساتذة مدارس الرها ونصيبين وحران وأنطاكية ، لينقلوا إلى السريانية وإلى العربية أهم كتب العلم والأدب عند اليونان وبيزنطية ، وجاء العباسيون بعد الأمويين فكان همهم أن يجمعوا المخطوطات اليونانية ، وأن ينقلوا إلى العربية أشهر كتب العلم والطب والفلسفة اليونانية ، وحتى القرن التاسع برمته وبغداد تترجم إقليدس وأرشميدس وبطليموس وديسقوريدس وثاوفرسطس وأبقراط وجاليونوس ، فبفضل العرب والمترجمين لهم وبفضل المدارس العربية في قرطبة عرف الغرب النصراني نفسه فلسفة أرسطو [1] .

قال « لوبون » : إن حماسة المسلمين في دراسة المدنية اليونانية واللاتينية مدهشة حقاً ، وربما لم يقم من الشعوب مَّن تقدمهم في هذه السبيل :

وقال « لكرك » : كان كل ما في أيدي العرب من العلوم في آخر القرن الثامن للميلاد ترجمة مؤلف في الطب ، وبضعة كتب في علم الكيمياء :

(١) الإسلام والحضارة العربية : ١٧٣/١ ، نقلاً عن كتاب بيزنطية لديبل (Diehll , Byzance)

وما انصرم القرن التاسع حتى كان العرب قد امتلكوا ناصية جميع علوم اليونان وثقافة الأقدمين ، ونبغ فيهم عدد عظيم من المؤلفين .

وقال « دوسن » : إن المدنية الأوروبية = بل المدنية الغربية كلها = مدينة للمسلمين بميراث حكمة الأقدمين ، وإن فتوحات العرب فى إمبراطورية الإسلام من القرن السابع ، إلى القرن الخامس عشر ، لتعدُّ إحدى عجائب التاريخ ، ومن المدهش أن يصبح العرب - وكانوا أول أمرهم على الفطرة - عنصراً فاتحاً ، ويغدوا سادة نصف العالم فى مائة عام ، ومن أشد العجب حماستهم العظيمة ، وسرعتهم البالغة فى تحصيل العلوم ، وتكوين الثقافة اللازمة لعظمتهم حتى وصلوا إلى مستوى عالٍ فى مائة سنة ، بينما نرى الجرمانيين لما فتحوا الإمبراطورية الرومانية قضوا ألف عام ، قبل أن يقضوا على التوحش ، وينهضوا لإحياء العلوم [1] .

وقال « نوبرجر » : « فاقت المدنية العربية = فى أوج إمبراطورية الإسلام = مدنية رومية القديمة فى حيويتها وتنوعها ، على حين كان لحضارة الإسلام فى الأندلس مركز يشابه من عدة وجوه حضارة اليونان القديمة » .

وقال الدكتور « سارطون » : « إن العرب كانوا أعظم معلمين فى العالم ، وإنهم زادوا على العلوم التى أخذوها ، وإنهم لم يكتفوا بذلك بل أوصلوها إلى درجة جديرة بالاعتبار من حيث النمو والارتقاء » [2] .

* * *

(١) تزول الدهشة حين يعرف أن العلم عباده مفروضة .

(٢) العلوم عند العرب والمسلمين للأستاذ قدرى طوقان ص . ١ - ١١

كيف واجه العرب المدنية اللاتينية

قال « لوبون » فى كتابه « حضارة العرب » : « ومن العوامل الفعّالة فى أصول المدنية التى وضع العرب أساسها ، ذلك المحيط الجديد الذى صاروا إليه ، وشدة ما كانوا عليه من الذكاء ، فإنهم ما كادوا يخرجون من صحاراهم ، حتى اتصلوا بالمدنية اليونانية اللاتينية مستغربين شأنها ، عارفين تفوقها الأدبى ، كما أدركوا من قبل تفوقها الحربى ، فحاولوا فى الحال أن يساموها { ويرتقوا إلى مستواها وإلي ما هو أعلى منها } ، فتمثلوا مدنية قديمة يقتضى تمثلها فكراً مهذباً عظيماً .

وإن ما بذله البربر من الجهود خلال قرون كثيرة للأخذ ببقايا المدنية اللاتينية ، ليدل على مبلغ الصعوبة فى هذا الباب ، ولحسن الحظ لم يكن العرب متوحشين ، ونحن نجهل ما بلغوه من الحضارة فى العهد الذى سبق الرسول ، وكانوا على اتصال بالتجارة مع العالم ، وكانت لهم ثقافة أدبية عالية لما ظهر صاحب الرسالة . ويدهى أن أديباً إذا قضى عليه أن يجهل أموراً كثيرة ، يكون له من استعداده العقلى ما يؤهله سريعاً لإدراك أمور لم يكن يعرفها ، فكان تحمس العرب فى دراسة العالم الجديد الذي خرجوا إليه كتحمسهم فى فتحه واستصفائه .

ولم يحمل العرب في دراسة هذه المدنية التى فاجأتهم شيئاً من تأثيرات الأوضاع التى كانت ترهق البيزنطيين منذ زمن طويل .. وهذه الحرية فى الأفكار كانت أحد العوامل فى انبعاثهم السريع ، وقد يفعل ماضى الشعوب فى حياتها ما يكون منه نفع ، ثم يستعبدها لسلطان المواصفات العتيقة ، ويحول دون ارتقائها .

وما عتم [١] الاستقلال الطبعى فى أفكار المسلمين ، وقوتهم فى الإبداع

---

(١) أى : ما لبث (وحالاً)

والقصور أن تجلّيا فيما أحدثوه من أنفسهم (وابتكروه) . ولم يمض زمن قصير حتى طبعوا الهندسة والفنون والعلوم بطابعهم الشخصى الذى نعرف به آثارهم لأول وهلة . وإذا كانت فلسفة اليونان النظرية غير موائمة كثيراً لطبيعة أفكار العرب لم يُعنوا كل العناية ، فخصوا الفنون والعلوم والآداب بعنايتهم ، وأولعوا بها فدخلت شغاف قلوبهم » [(١)] .

* *

● تعقيب :

والواقع أن ما قاله « لوبون » بشأن فلسفة اليونان صحيح فى الجملة ، ولكنه ليس دقيقاً ، فقد درس المسلمون الفلسفة والمنطق اليونانى جميعه ، وعلّقوا عليها .. واستفادوا منها فى أسلوب التفكير ، وفى حوار المذاهب والملل والنحل . وحدد علماء المسلمين من أقوال الفلاسفة ما به يخرجون من الملّة [(٢)] ..

على أنه من المعلوم أن هذا البعث الإسلامى لما كان عند اليونان القدماء ، بعد ترجمة المسلمين له ، وإخراجه من الأقبية ، حركة إحياء لما كان ميتاً في الغرب ، فقد كان المجتمع الأوروبى قد انحدر إلى أسفل سافلين : علماً ومدنية وأخلاقاً ... كما سنبينه بأقلام كتاب الغرب أنفسهم . لندرك فضل الإسلام على العالمين . ولنثبت معجزة الحقيقة القرآنية : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [(٣)] ، ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَاراً ﴾ [(٤)] .

روى « دوزى » : أنه كان كل فرد فى الأندلس يعرف القراءة والكتابة ، بينما كان فى أوروبا جميع النصارى - حتى النبلاء والأشراف منهم - لا يفكرون فى التعليم ، وقد أنشأ الوزير رضوان النصرى (٧٦٠ هـ) المدرسة بغرناطة ولم تكن بها مدرسة .

* * *

---

(١) الإسلام والحضارة العربية : ١٥٢/١ - ١٥٣

(١) انظر مقدمة كتابنا « الضالون كما صورهم القرآن » .

(٢) الأنبياء : ١٠٧ (٣) الإسراء : ٨٢

حضارة الإسلام فى الغرب

قال مسيو رينيه ميليه : « هذا وإنى لا أطيل القول فى الشىء المشهور من أن الحضارة العربية بلغت شأواً عظيماً فى بغداد وقرطبة ، وإنما يسرنى أن أبحث فى أسباب هذه المدنية الراقية وحدودها .

« وإليكم أول ما يتبادر إلى ذهن الباحث النزيه وهو أن الإسلام أعطى أشهى ثمرة لما سرت إليه روح المدنية القديمة خالصة من الشوائب .

● حضارة الإسلام فى الأندلس :

« وإن لى كلمة على دولة الإسلام فى الأندلس التى فتحها مسلمو إفريقية الشمالية :

« انظروا إلى قرطبة تلك المدينة التى سقطت الآن إلى حضيض الهوان والفقر ، وانظروا إليها لما كانت فى عهد الدولة العربية عامرة آهلة يبلغ عدد سكانها زهاء خمسمائة ألف نسمة وعدد مساجدها ثلاثة آلاف وعدد منازلها مائة وثلاثة عشر ألفاً عدا ثلاثمائة من الحمامات العامة ، ثم إذا أردتم أن تقفوا على أخلاق أمراء المسلمين فى تلك الدولة ودرجة آدابهم ورقيهم فإليكم صورة الوصية التى تركها عبد الرحمن الأول أحد خلفاء قرطبة لابنه وقد اخترتها عفواً من بين المستندات الكثيرة التى تتعلق بتاريخ الإسلام فى أسبانيا :

« اعلم يا بنى أن المُلك بيد الله يؤتيه مَن يشاء ، وينزعه ممن يشاء ، فاحمد الله على أن وهبنا مُلك الأندلس ، فعليك بتقوى الله وطاعته ، واعمل خيراً مع الناس كافة ، وخصوصاً أولئك الذين وكل الله شؤونهم إليك ، وساو فى حكمك وقضائك بين الفقراء والأغنياء ، ولا تُوَلِّ أمور الناس إلا مَن عرفتَ فيهم الحكمة والخبرة ، وعامل جندك بالشدة واللين معاً ليكونوا حماة الدولة ، لا عوناً للظلمة من الحكام . وواجب عليك أن تظل الزراع بحمايتك ، وأن تودهم بمعونتك ، لأنهم مورد حياتنا ، واحرص على محبة الرعية لك وتعلقهم بك .. » .... إلخ .

« إنى أود أيها السادة أن أسمع مثل هذه الوصية من رئيس وزرائنا فى زمننا هذا ، ولا أفكر فى وصف ما كان يجرى فى بلادنا فى القرن العاشر = أى العصر الذى قال فيه الخليفة عبد الرحمن هذا القول = لأنى أخشى أن تتهمونى بعمل مقارنة تشوه سمعة العالم المسيحى ، وتظهره بمظهر مخجل .

« لبثت هذه المدنية التى أتت بالمدهشات والتى لا يزال الناس فى حيرة من أمرها زاهية زاهرة ثمانمائة سنة . فتح العرب الأندلس فى سنة أو سنتين ثم لم تُنتزع من أيديهم إلا بعد ثمانية قرون من حكمهم . أليس ذلك مما يدعو إلى العجب ، وإذا أضفنا إلى هذه المدة المائتين أو الثلاثمائة سنة التى استعلت فيها دولة الأتراك وبلغت شأواً بعيداً من العظمة الحربية ، علمنا أن الدول الإسلامية ظلت صاحبة السيادة على العالم مدة ألف سنة تقريباً ، وهى مدة تناهز عمر الدولتين اليونانية والرومانية .

* *

● تعارف الإسلام والمسيحية :

« ولكن ثمة أمراً يرتبط بالموضوع الذى نبحث فيه الآن (موضوع التوفيق بين المسلمين) وهو نتائج ما جرى فى القسطنطينية وما جاورها من شواطىء البحر الأبيض وفى الأندلس من تعارف الإسلام والمسيحية وتآلفهما .

« ابتدأ هذا التعارف فى الأندلس بعد فترة قصيرة من الفتح الإسلامى ، ولا يفوتنكم أن ما يرويه القصّاصون من الجهاد بين النصارى والمسلمين فى إسبانيا لا يطابق الحقيقة فى جملته ، لأنهم يمثلون « السيد » فى قصة ألّفها « كورنيل » بطلاً مقداماً أعده قومه لمجاهدة الكفار (يريد المسلمين) ، فى حين أن الحقيقة هى أن هذا البطل إنما قدّم نفسه لخدمة المسلمين ، وحارب فى صفوفهم ، ومات وهو بين المسلمين يحارب أعداءهم . إن المستقرىء لأطوار العلاقات بين النصارى وأمراء الإسلام فى الأندلس يعلم أن الأمراء المسيحيين كانوا يستشيرون أطباء المسلمين إذا أصابهم أو أصاب أبناؤهم مرض ، وكثيراً

ما كانوا يفدون إلى قصور الخلفاء ويقيمون بها حتى يتم شفاؤهم ، فترون أيها السادة أن هذه العادات تناقض بتة ما يرجف به القصّاصون من خرافة الحرب الصليبية الخالدة بين النصارى والمسلمين .

« لقد لزم مسلمو الأندلس التسامح مع النصارى ومودتهم حتى فى الدَور الذى اضمحلت فيه دولتهم وأخذ أمراء المسيحيين ينقضونها من أطرافها ، فإذا أتيح لأحدكم أن يتجول فى أنحاء إسبانيا الآن يمكنه أن يقف على آثار العرب هناك ، وعلى بقايا ما شيَّدوه فى دور اضمحلالهم ليستخلص من دراسة تلك الآثار أن الأندلس كانت بلاد غِنىً ورفاهية حتى فى دور تضعضع سلطان المسلمين ويدهش من أنها كانت فى ذلك العهد أيضاً بلاد تسامح وتساهل .

* *

● ممالك الإسلام واحات الحرية :

« وفى هذا العهد كانت دولة غرناطة زهرة أوروبا ، وكان كل مَن يريدون أن يستنشقوا نسيم الحرية المدنية يذهبون إلى تلك البلاد فارين من البلاد التى كان يحكمها الأمراء المسيحيون ، وهى مهد القسوة والظلم ، هنالك يعاقب الأمراء مَن يأسرونهم فى ساحة الحرب بإلقائهم إلى كلاب مفترسة تمزق أجسامهم إرباً إرباً .

« لم يكن ذلك مقصوراً على الأندلس ، بل كان بين المسلمين والمسيحيين علاقات متينة محكمة لبثت من انتهاء الحروب الصليبية إلى فتح القسطنطينية . فإنكم تعلمون – أيها السادة – أن عظمة البندقية وجنوة فى العصور الوسطى راجعة إلى تجارتهما مع الشرق ، وتعلمون ما استفدناه من احتكاكنا بالمسلمين إذ ذاك ، فقد كان لنا كثير من البيوت التجارية فى فلسطين وسوريا واليونان ، ولا يخفاكم أن مَن أسعدهم الحظ من الغربيين بازدياد احتكاكهم بالمسلمين كان يسرى إليهم كثير من عاداتهم وأخلاقهم الشريفة حتى قلقت الكنيسة الكاثولكية على أبنائها من سريان روح الإسلام إليهم ، ونظرت بعين

الخوف إلى تنازع المبادىء الإسلامية والمسيحية ، وخصوصاً إلى مبدأ التسامح الذى كان آفتهم ؛ وعدوهم اللدود !!

« هذا وإن هناك حقيقة يجب أن نبينها ، وهو أنه فى هذه الفترة التى تعارف فيها المسلمون والمسيحيون ، أى من انتهاء الحرب الصليبية إلى فتح القسطنطينية (عام ١٤٥٣ م) - فى هذه الفترة التى تعارفت فيها المدنيتان المسيحية والإسلامية - كان الإسلام هو العنصر المؤثر والعالَم الأوروبى هو العنصر المتأثر ، فكانت أوروبا تجلب من المشرق كل ما كانت تحتاج إليه من المصنوعات والمنسوجات وضروب الرفاهية حتى لم يعد فى إمكانها أن تدفع ثمن كل ما تشتريه ، ومن ذلك تعلمون أن سبب اندفاع أمراء أوروبا فى سبيل اقتناء الذهب بأية وسيلة راجع فى الأكثر إلى فقر أوروبا وإعوازها من الحاصلات التى تتبادلها مع تجار المشرق .

« هذا من جهة الماديات .

« وأما من جهة العلوم والآداب فإن أوروبا لبثت ثلاثمائة سنة تقتبسهما من الإسلام ، وكانت المدنية الغربية تجنى ثمارهما اليانعة .

« ولكن حادثين عظيمين أوقفا سير ذلك التيار الكهربائى الذى كان يحيط بالبحر الأبيض المتوسط وهما : استيلاء الأتراك على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م واستيلاء الإسبانيين على غرناطة سنة ١٤٩٢ م .

* *

● حرب الحقد المسيحى :

« فمن ذلك اليوم قامت حرب الأحقاد الدينية حتى إنك ترى آثار التعصب الإسبانى فى تاريخ عرب الأندلس كالنقطة السوداء فى الصحيفة البيضاء الناصعة ، ولا سيما فى ذلك الوقت الذى حالف فيه الأمير يوسف جماعة القسيسين . وفى رأيى تعصب الإسبانيين كان أفظع وأقل عذراً لأنه جاء فى زمن كانت القوة والعدد لهم . وأن الاستيلاء على غرناطة الذى يفتخر به

الإسبانيون ، والذى يحسبونه يجمِّل عصر « فرديناند » و « إيزابيلا » لم يكن فى الحقيقة إلا عملاً وحشياً بربرياً لم أعهد فى التاريخ أقبح منه ، خصوصاً وأن إمارة غرناطة لم تكن لتهدد إسبانيا فى شيء لاستيلائها على ما حواليها من الأراضى والمدن ، وإنما كانت غرناطة عروس إسبانيا وزينتها = ولا بد أن يكون الإكليروس الإسبانى أو الطليطلى رأى أن يحق هذا الجمال ، ويزيل هذه المدنية البديعة خدمة للمسيحية ، والمسيحية بريئة منه .

* *

• إحراق الكتب الثقافية غدراً :

« والأدهى من ذلك أن المسيحيين كانوا أعطوا وعوداً قبل الدخول ، ولكنهم أخلفوها وجمعوا الكتب الجليلة وأحرقوها ليتلذذوا بنظرها وظنوا أنهم بعملهم هذا قد قضوا على دين المسلمين وآدابهم » .

* * *

• تزييف تاريخ العلوم :

قال « بريفولت » : إن « روجر بيكون » درس اللغة العربية والعلم العربى فى مدرسة أكسفورد على خلفاء معلميه العرب فى الأندلس . وليس لـ « روجر بيكون » ولا لسميه « فرنسيس بيكون » الذى جاء بعده الحق فى أن يُنسب إليهما الفضل فى ابتكار المنهج التجريبى . فلم يكن « روجر بيكون » إلا رسولاً من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوروبا المسيحية ، وهو لم يملّ قط من التصريح بأن تعلّم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة .

« والمناقشات التى دارت حول واضعى المنهج التجريبى هو طرف من التحريف الهائل لأصول الحضارة الأوروبية . وقد كان منهج العرب التجريبى فى عصر « بيكون » قد انتشر انتشاراً واسعاً ، وانكب الناس فى لهف على تحصيله فى ربوع أوروبا .

« من أين استقى « روجر بيكون » ما حصله من العلوم ؟ من الجامعات الإسلامية في الأندلس ، والقسم الخامس من كتابه (Cepus mezas) الذي خصصه للبحث في البصريات = هو في حقيقة الأمر نسخة من كتاب « المناظر » لابن الهيثم » .

وقال « ويلز » : « وكانت طريقة العربي أن ينشد الحقيقة بكل استقامة وبساطة ، وأن يجلوها بكل وضوح وتدقيق غير تارك منها شيئاً في ظل الإبهام ، فهذه الخاصة التي جاءتنا نحن الأوروبيين من اليونان ، وهي نُشدان النور ، إنما جاءتنا عن طريق العرب . ولم تهبط على أهل العصر الحاضر عن طرق اللاتين » .

وقال « سيديو » عن المسلمين : « وإن نتاج أفكارهم الغزيرة ومخترعاتهم النفيسة تشهد أنهم أساتذة أهل أوروبا في جميع الأشياء » .

وقال « كاردانو » : « إن الكندى من الإثنى عشر عبقرياً الذين هم من الطراز الأول في الذكاء في العالم كله » .

ويقول « سمث » في « تاريخ الرياضيات » [١] « ولم تدرس المثلثات الكروية المائلة بصورة جدية إلا على أيدى العرب في القرن العاشر للميلاد » .

ويقول « نالينو » في كتابه « علم الفلك : تاريخه عند العرب في القرون الوسطى » [٢] : « وفي أواخر القرن الثالث ، أو أوائل القرن الرابع توصلت العرب إلى معرفة كل من هذه القواعد المختصة بالمثلثات الكروية القائمة الزاوية ، إذ وجدتها مستعملة لحل مسائل علم الهيئة الكروى في النسخة الخطية من زيج أحمد بن عبد الله = المعروف بحبش الحاسب = المحفوظة بمكتبة برلين ، وهذا الزيج ألف بعد الثلاثمائة بسنين قليلة جداً حسبما استدللت عليه بأدلة شتّى » .

* * *

---

(١) الجزء الثاني ص ٦٧٢ (٢) ص ٢٦٩

● لماذا ينكر الغرب أثر الإسلام ؟

قال الكاتب الأسبانى الكبير « بلاسكو إيبانيز » فى قصته المعروفة « فى ظل الكنيسة » : « ولعل القارىء الذى تساءل - والظروف كما ذكرنا - عن السبب فى إنكار كل أثر للإسلام لدى علماء يبدو أن روحهم العلمية تخرج بهم عن كل تعصب دينى .

« وتفسير ذلك : أن الواقع يشهد بأن حرية الرأى مسألة ظاهرية أكثر منها حقيقية ، وأن الإنسان ليس حر التفكير على الإطلاق كما يشاء فى مسائل معينة ، ثم إن التعصب الموروث لدى المسيحيين ضد الإسلام وأتباعه قد عاش فيهم دهوراً طويلة حتى أصبح جزءاً من كيانهم .

« فإذا أضفنا إلى هذا التعصب الدينى تعصباً آخر هو أيضاً موروث تزيده الأجيال المتتالية تمكناً من النفوس بفضل مناهج الدراسات القديمة التى تسير عليها مدارسنا ، وهو أن كل العلوم والآداب الماضية يرجع الفضل فيها إلى الإغريق واللاتينيين وحدهم ، لأدركنا فى يسر - كيف ينكر الناس عامةً ذلك الأثر العظيم الذى كان للمسلمين فى تاريخ الحضارة الأوروبية ، وسوف يبدو دائماً لبعض العقول أنه من المهانة أن تدين أوروبا المسيحية للمسلمين بإخراجها من ظلمات البربرية والتوحش » [١] .

وقال الكاتب الفرنسى الممتاز « بيير لوتى » : « عندنا - نحن الأوروبيين - يعتبر من الحقائق الثابتة أن الإسلام هو دين من أديان الظلام الفكرى التى تحول بين معتنقيها والنور ، وهو يجلب الركود إلى الشعوب ، ويضع أمامها العقبات فى سيرها نحو ذلك المجهول الذى ندعوه بالتقدم . وهذا يدل - قبل كل شىء - على الجهل المطلق بتعاليم النبى ، وفوق ذلك هو نسيان مذهل لشهادة التاريخ .. لأن الإسلام ، منذ القرن الأول ، قد جعل يتطور ويتقدم مع

---

(١) محمد رسول الله ص ٣٧٩ - ٣٨٠ .

الأجناس المتباينة . ونحن نعرف أىَّ صعود سريع ذلك الذى منح الناس إياه إبَّان حكم الخلفاء الأولين » [1] .

وقال « داربر » فى كتابه « تاريخ الارتقاء العقلى فى أوروبا » : من موجب الأسف أن الأدب الأوروبى حاول أن ينسينا واجباتنا العلمية نحو المسلمين ، فقد حان الوقت الذى ينبغى لنا أن نعرفهم فيه . إن قلة الإنصاف المبنية على الأحقاد الدينية ، وعلى العنجهية القومية . لا تدوم أبد الدهر » .

وفى التاريخ العام لـ « لافيس » و« رامبو » : « إذا وجب أن يُذكر لكل واحد قسطه من العمل . لا يسع المنصف أن ينكر أن قسط العرب منه كان أعظم من قسط غيرهم ، فلم يكونوا واسطة نقلت إلى الشعوب الجاهلة فى إفريقيا وآسيا وأوروبا اللاتينية معارف الشرق الأدنى والأقصى وصناعاته واختراعاته ، بل أحسنوا استخدام المواد المبعثرة التى كانوا يلتقطونها من كل مكان . ومن مجموع هذه المواد المختلفة التى صبَّت فتمازجت تمازجاً متجانساً ، أبدعوا مدنية حية مطبوعة بطابع قرائحهم وعقولهم ، وهى ذات وحدة خاصة وصفات فائقة » .

* * *

● إهمال دراسة الحضارة العربية :

قال الأستاذ « أمين فارس » - وهو مسيحى كبير - فى كتابه « هذا العالم العربى » : « إن الباحثين المعاصرين والمتأخرين لم يعنوا بالحضارة العربية العناية الكافية ، ولم يدرسوها الدراسة التى تستحقها ، ولم يبذل - حتى الآن - أى جهد منظم لدراستها دراسة دقيقة متقصية ، تبين علاقاتها بالحضارات السابقة والمعاصرة . وتحدد تأثيرها الأساسى فى الحضارات اللاحقة وبخاصة الحضارة الغربية . ونحن على يقين - استناداً إلى الدراسات الجزئية التى تمت

---

(١) هذا هو الإسلام - نقلاً عن فيليب حتى - تأليف بيير لوتى ص ٨٣

فى الموضوع - أن مثل هذه الدراسة ستظهر الأثر الخيِّر الذى كان للحضارة العربية على الحضارة الغربية ، مهما كان هذا الأثر ضئيلاً . ومثل هذه النتيجة تعيد الثقة إلى نفوس ناشئة المسلمين بأن الحضارة العربية = وإن انقضى دورها اليوم = كانت حلقة نيِّرة من حلقات الحضارة البَشرية التى نستمتع الآن بطور من أطوارها .

« على أن هذا الأثر لا يتم فى عقول هذه الناشئة ما لم يغير الباحثون الغربيون الذين يكتبون التاريخ الغربى خاصة . والتاريخ الإنسانى عامة :: موقفهم من الحضارة العربية فيعطوا هذه الحضارة حقها ، عند البحث عن مصادر الحضارة الغربية الحديثة .

« إن مؤرخاً عظيماً من مؤرخى الفلسفة كـ « برتراند رسل » مثلاً لم يخصص للفلسفة العربية والدين الإسلامى والنبى محمد أكثر من ١٦ صفحة متفرقة من صفحات كتابه الكبير « تاريخ الفلسفة العربية » البالغ عدد صفحاته ٨١٦ صفحة (طبعة لندن ١٩٤٨ = الطبعة الثالثة) .

« وهذا باحث أمريكى مشهور يؤلف حديثاً « بحثاً فى تفهم العالَم » ولا يخصص للعرب والمسلمين غير ١٢ صفحة من مجموع صفحات الكتاب البالغ عددها ٣٩٦ (بنيويورك عام ١٩٤٧ ف . س . ك . توثورب : التقاء الشرق والغرب) .

« قد يكون هذا مقياساً غير دقيق لتقدير الأهمية النسبية لأفكار الناس وأعمالهم ، ولكنه مقياس = على ما ينقصه من الدقة = يعكس لنا إهمال الباحثين الغربيين المعاصرين ما قدمه المسلمون ، وهم سُبْع الجنس البَشرى ، فى حقل الحضارة إليهم . على أن هنالك من الدلائل ما يشير إلى أن الباحثين الغربيين قد بدأوا يتلافون هذا النقص . فقد أشار « ويل ديورانت » فى كتابه « قصة الفلسفة » إشارة واحدة عابرة إلى الإسلام . أما فى كتابه الكبير الذى

صدر حديثاً عن تاريخ الحضارة فقد عقد للحضارة العربية الإسلامية سبعة فصول كاملة استغرقت (١٩٣) صفحة من صفحات الكتاب البالغة (١١٠٠) صفحة .

« كما ظهرت هذه العناية فى ازدياد عدد الجامعات والمعاهد العلمية التى تفسح المجال للدراسات الإسلامية ، وفى هذه الإعانات الضخمة التى تهبها المؤسسات العلمية للباحثين فى الشئون الإسلامية .

« وإن أفضل وسيلة نثير بها اهتمام الشباب العربى بتاريخهم وأقواها تأثيراً هى أن نجعلهم يهتمون بمشكلات بلادهم الحاضرة ، ويتفهمونها التفهم الصحيح » .

* * *

● الإكراه على المسيحية :

يقول « رينيه » : « ثم إنهم أمروا المسلمين أن يدخلوا فى المسيحية كافة ، ولما لم يجابوا إلى طلبهم جمعوهم زمراً زمراً وحبسوهم في غرف واسعة ، ورشوهم بالماء إشارة إلى تعميدهم وتنصيرهم ، ثم لما رأوا أن هؤلاء المسلمين المتنصرين لا يزالون يغتنون طمعوا فى أموالهم وصاروا يظلمونهم من آن لآخر . ومن ذلك ما وصل إلينا من أوامر « فيليب الثانى » التى يحرِّم عليهم فيها لبس الثياب العربية ، واستعمال اللغة العربية ، والاستحمام فى الحمامات العامة ، والسبب فى هذا الأمر الأخير أن الكنيسة الإسبانية كانت ترى الاستحمام جُرْماً لا يُغفر !!!

« ولقد زرتُ غرناطة ورأيتُ آثار تلك الحمامات المحكمة البناء البديعة النقوش ، التى أمر « فيليب الثانى » بتهديمها ، حقداً منه على المسلمين ومطاوعة لاعتقاد الكنيسة الإسبانية أنها مأوى الشياطين !!! فى هذه الحمامات كان العرب يتنظفون وبها يتطيبون ، مع أننا نلاقى مصاعب عظيمة فى تعويد بنى وطننا على عادة الاستحمام النافع ، وإنكم تعلمون كيف طُرِد المسلمون المُجبَرون على

التنصُّر من وطنهم سنة ١٦١١ ، ثم كيف خانهم أصحاب السفن فألقوا متاعهم في البحر وأنزلوهم في أرض لا أنيس بها » .

* *

● أثر غروب الإسلام في أخلاق الغرب :

ثم قال « رينيه » : « هذا ولا تظنوا أن أوروبا لم تتأثر من مفارقة المدنية الإسلامية فإنها بدأت تشعر اليوم بالنقص - ثم هل نحن في حاجة إلى بيان ما وصلت إليه أوروبا من الرقي وما انعكس من تقدمها على البلاد الأجنبية ؟

« إلا أنها في علاقاتها مع الأجانب عنها كانت فظّة غليظة القلب ، ويكفي أن أذكركم بفظائع دخول الإسبانيين أمريكا لتتبيَّنوا بأنفسكم قيمة المسيحي أيام طرد العرب من إسبانيا ، ولقد ضاع رشد الإسباني حتى لم يعد يدرك معنى الحياة فيقود الأمم الأجنبية .

« ولو أنكم تطالعون تاريخ الاستعمار في القرنين الأخيرين لتمثلت لكم روح الظلم والعدوان ، ولرأيتم أن اتساع سُلطة أوروبا وانتشار نفوذها إنما كان باسترقاق السود وتعذيبهم ، ولرأيتم أن غرضها إنما كان جمع المال ، لا تتحرج من إتيان الشر والاعتساف ، كل ذلك جاءها من مغادرة الإسلام لها وافتراقه عنها - ولقد بلغ من غلوها في الظلم والاعتساف أنها رأت في بعض الأحايين أنه لا يستقيم لها بلداً إلا إذا استأصلت أهله وأهلكتهم ، وهكذا فعلت إنكلترا في أمريكا . نعم إن براعة الأوروبيين قد ظهرت في المسائل المادية ، فترقت العلوم والفنون والصناعات بين أيديهم . ثم إنهم تحملوا المشاق وقاموا بالأعمال الجسام ، ولكنهم عجزوا في كل وقت عن أن يفقهوا مدنية أجنبية عن مدنيتهم ، وأن يقفوا على كُنْه عقول ليست من عقول إخوانهم في الجنس ، وقد أدركوا اليوم ضلالهم في خطتهم الأولى ، وشرعوا يلتمسون خطة جديدة غايتها تقدير نفوس الأهلين الأصليين ومعرفتها معرفة صادقة .

« فهذا التفسير التاريخى كاف لإيقافكم على أسباب ارتقاء الإسلام تارة ، وأسباب أفول نجمه تارة أخرى » .

* * *

● تصوير الغربيين للحقد الصليبى :

يقول « چوستاف لوبون » : « عمل العرب ما ينفع الأندلسيين ما يقرب من عمر مملكة الرومان ، كانوا طوالها مثال المسامحة واللطف والحرية ، ولما عاد النصارى فافتتحوا « غرناطة » - آخر معقل للإسلام - اضطهدوا هؤلاء الذين أحسنوا إليهم اضطهاداً قاسياً ، على الرغم من المعاهدات المعقودة مع المسلمين ، والتى تعهد فيها « فرديناند » للعرب بترك حريتهم الدينية ، وحرية لغتهم التى عقدها معهم ، وأعلن « فيليب الثانى » طرد العرب من إسبانيا ، بحجة استيلائهم على الأعمال جميعها ، وأصدر أوامره سراً بذبح مَن أمكن ذبحه قبل مغادرة البلاد ، فأهلك نحو ثلاثة أرباعهم .

« ومنذ سنة ١٤٩٩ م بدأ عهد الاضطهاد ، بدءاً من التعميد بالقوة ثم إلى ديوان التحقيق الدينى حيث إحراق كل مَن يمكن حرقه ، ولأن ذلك يأخذ وقتاً ، فقد اقترح الكاردينال رئيس الأساقفة تطهير فرنسا من العنصر العربى الذى لم يتنصر رجلاً أو طفلاً أو امرأة . ولكن الدومينكى « بليدا » - وكان أشد قسوة - أمر بالإبادة التامة لمن تنصَّر ولمن لم يتنصَّر . وكان عدد مَن قتلوا مائة ألف مسلم ومسلمة خلال ارتحالهم إلى إفريقية » .

ويقول « سيديليو » ومعظم المؤرخين : « إن عدد مَن فقدتهم إسبانيا نحو ثلاثة ملايين . وذلك من فتوح « فرديناند » إلى طرد العرب الطرد الأخير ، بمن فيهم من العرب المتنصِّرة تقية (الموريسك) ، وكان ذلك سنة ١٦٠٤ » .

قال « لوبون » : « إذا قيست مذبحة « سان بارتلمى » بمثل هذه المجازر عدت مناوشة غير ذات أهمية . ومن سوء حظ إسبانيا أن هذه الثلاثة الملايين

الذين حرمت منهم إسبانيا باختيارها كانوا يؤلفون الطبقة العالية فى العلم والصناعة » .

وهكذا كان الحال فى البرتغال ...

فقد قال المؤرخ البرتغالى « هركولانو » : « إن العرب عندما جلوا من لشبونة إلى البرتغال ، قبل جلائهم عن غرناطة بزمن طويل ، عاملهم البرتغاليون معاملة قاسية ، بمعاونة قرصان من الفرنسيين والإنجليز والنورميين والألمان والبلچيك ، إذ قتلوا الأطفال والرجال ، وسبوا الأعراض ، ودنّسوا كل شيء ، وأحرقوا فى مدينتهم أقواتها ، ، فهلك فى هذه المرة نيف وعشرون ألف نسمة .

« وفى سنة ١١٤٧ م استولى الملك « ألفونسو هنريك » على شنترين وشنترة ولشبونة ، وقد منع المسلمون من مغادرة تلك البلاد عند سقوطها فى أيدى البرتغاليين ، إلى أن طرد الملك « عمانويل » من بلاده المسلمين واليهود بلا قيد ولا شرط أواخر القرن الخامس عشر ، استجلاباً لرضا ملك قشتالة وأرجون وملكتها .

« وفى سنة ٦٠٥ هـ (١٢٠٨ م) نادى البابا بالحرب المقدسة لإجلاء « الموحدين » عن الأندلس ، فخفت لتجدنه جيوش النصرانية من إيطاليا وفرنسا وألمانيا . فكان لهم ما أرادوا .

« وفى سنة ١٥١١ أمر الكاردينال « كسيمنس » بأن تحرق فى ساحات غرناطة كميات من الكتب العربية – وبخاصة المصاحف – فتم ذلك بغيرة عمياء استمرت نصف قرن . وكاد ديوان التحقيق الدينى الذى أخذ على عاتقه إبادة كل أثر للعرب أن يجعل تلك المخطوطات العربية فى مكتبة الأسكوريال طعاماً للنار ، لولا أن تلطف « المركيز فيلادا » وحال دون إحراقها » .

قال « ستانلى لانبول » : « إن فضل مسلمى الأندلس يتجلى فى همجية الإسبان وتراجعهم فى مراقى النجاح ، بعد أن خلت أرضهم من الإسلام » .

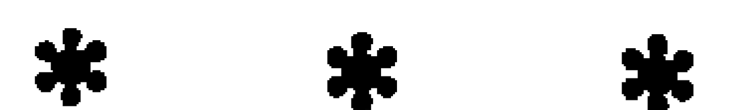
وقال « لابريولا » : « لقد جعل العرب من إسبانيا جنة بديعة ، وكانت قد صارت إلى بربرية على عهد القوط ، وجعلوا إسبانيا أعظم مركز للثقافة الأوروبية ، فقضى الفتح الإسبانى على عمل سبعة قرون فضتها إسبانيا فى ظل مدنية العرب » .

وقال « لوبون » : « ظن الكردينال « كسيمنس » لما أحرق فى غرناطة كل ما طالت يده إليه من مخطوطات العرب - وكانت ثمانين ألفاً ، عدا ما أحرق فى المدن الأخرى ، أنه يحذف إلى الأبد من كتاب التاريخ ذكرى أعداء دينه ، ولكن الأعمال التى قامت على أيديهم فى تلك الأرض تكفى لتخليدهم على عنق الدهر ، وإن نفدت آثارهم المكتوبة » [(١)] .

* * *

● الواقع المعاصر أعظم شاهد :

عندما هَبَّ الغرب لتدمير العراق بحجة احتلال الكويت ، ولكن عندما احتل اليهود فلسطين أيَّدها الغرب المسيحى الحاقد والشرق الشيوعى الملحد وهيئة الأمم المتحدة ، وعندما غزا الصرب والجبل الأسود البوسنة والهرسك تخاذلت أمريكا عن حرب الإبادة لمسلمى البوسنة والهرسك ، وهكذا قل فى التخاذل الغربى الأوروبى والأمريكى فى الصمت على عمليات الإبادة لكل دولة مسلمة فى آسيا وإفريقيا . مثل كشمير وجنوب الفيلبين ، والصومال وأريتريا ، ومسلمى التركستان وغيرها .



---

(١) الإسلام والحضارة العربية - لكردعلى : ١/٢٦٦ - ٢٧١

الفصل الرابع

الإسلام والعلم

- العلوم عند العرب .
- تأثير الإسلام فى الحضارة الأوروبية .
- الإسلام يمنح العلوم لأوروبا وليست إيطاليا .
- فى الرياضيات - وتزييف تاريخ العلوم .
- فى الملاحة والكشوف الجغرافية .
- التجربة والاختراع - ونشأة المنهج العلمى التجريبى .
- الدين ونشأة العلوم الكونية .
- حرفة الطب .
- فى علم النبات - الفرائض والجبر .
- الحملات العلمية .
- دور المسجد فى التعليم : الإملاء والتدريس من كتاب.
- الدقة فى تسجيل المحاضرات
- الرحلات العلمية .
- أثر الحروب الصليبية فى الغرب .
- المكتبات والخدمات المكتبية .
- زخرفة الكتب . وتطوير المكتبات إلى مؤسسات .
- احتواء ثقافة اليونان .
- الإسلام والأدب فى الغرب .

العلوم عند العرب

لا ينكر الذين يحترمون أنفسهم من الباحثين فى العلوم وتاريخها وتطورها ما للعرب فى هذا المجال من نصيب كبير . وكثيراً ما عرض المستشرقون وتلاميذهم الإسلاميون إلى منجزات علماء المسلمين القدامى وبيان أثرها فى الغرب ، بل وكثيراً ما حققوا بعض ما وصلت إليه الأيدى من مخطوطاتهم ، رغبة فى الاستعانة بهذه النصوص فى لغتها الأصلية على ربط الحلقات العلمية بعضها ببعض .

وفى هذه الحالة يبدو جلياً ترابط سلسلة الفكر العلمى والحضاري فى العالَم ، وهذا - بدوره - يسهم فى إضفاء مسحة من الإخاء بين أهل العلم مهما اختلفت ألوانهم ومنازلهم ، ويخفف من حدة التوتر بين الشعوب ، وذلك إذا أمكن أن تعرض دراسات تاريخ العلوم والتاريخ الحضارى للأمة الإسلامية بلهجة أو أسلوب خالٍ من الاستعلاء على غير المسلمين . وإلا أوجدت رِدَّة فعل معاكسة .

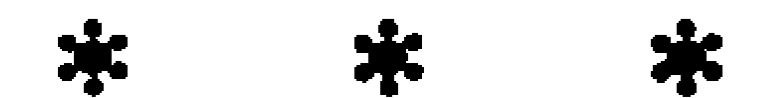
ومن هذا القبيل ما لاحظناه فى أحاديث الرئيس المصرى « السادات » أمام اليهود والأمريكان حول التفاخر بحضارة مصر القديمة ، وأنها تضرب بجذورها فى التاريخ إلى سبعة آلاف سنة .

وكان مردود ذلك التحدى بالماضى ذلك الفيلم الذى شاهدته فى أواخر مارس سنة ١٩٨٦ عن الصراع بين حضارة العصر الحديث ، ممثلة فى الروبوت الأمريكى (الإنسان الآلى) وبين حضارة الفراعنة التى أبرزت فى مواقف التخلف التى انتهت بالهزيمة ، حين سجن الرجل الآلى الأمريكى نظيره الفرعونى فى النهاية ، ثم أحرقه بالرغم من طلاسمه وروحانياته ، وبذلك احترقت معه عساكره المصرية الشرقية .

* * *

● الإسلام والإبداع :

إن المتأمل فى تاريخ نشأة العلوم وتطورها فى ظل الإسلام ، يتكشف له أن طبيعة الإسلام هى التى كانت وراء ما ابتدعه العرب ، ابتداءً ، وأنشأوه إنشاءً ، كما كانت وراء تطوير ما كان موجوداً من العلوم عند غيرهم ، وبعثه من جديد ، ودراسة ذلك وعرضه علمياً .. يمنح الدارس المسلم شعوراً بقيمته وقيمة دينه ، وفى الوقت نفسه يُلقى لغير المسلمين أضواء من الحقيقة تجعله يعيد النظر فى أسلوب تعامله مع المسلمين ، فيجعله أكثر احتراماً .



تأثير الإسلام فى الحضارة الأوروبية

قال « چون هرمان راندل » فى كتابه « تكوين العقل الحديث »[1] : « وقد حدث خلال التاريخ أن نتج عن الاحتكاك بحضارات وعقائد أخرى انحلال مجموعة من المؤسسات والآراء المتبلورة ، وإعطاء الناس نظرة مستنيرة عالمية ، فنهضة القرن الثانى عشر فى أوروبا كانت تعنى أولاً بالنسبة للشعوب الأوروبية احتكاكها مع العالَم الإسلامى والثقافة القديمة التى حافظ عليها » .

ثم قال : « وعندما اكتشفوا الثقافات الشرقية الكبيرة وقفوا مندهشين يشخصون إليها بتعجب الطفولة ، كما فعل البربر قبلُ أمام روما والإسكندرية . فكادت – لولا ثقة الأنفس – أن لا تثير فيهم سوى الغريزة البدائية فى السلب والنهب .

« والذى يدهشنا أن الأوروبين الذين تعلموا بشغف من المسلمين ، والذين اندفعوا بشوق وراء الحكمة الإغريقية والرومانية ظلوا زمناً طويلاً من غير أن يتأثروا باكتشافاتهم الجديدة ، ولم تأخذ النتائج الفكرية الأولى للشعور الأوروبى المتسع بالعالم شكل تنشيط مباشر للفكر ، قدر ما أخذت شكل اتساع فى الخيال ، واستعداد لقبول أى شىء لم يسمع به ، وتحسس فى أن العالم المسيحى لم يكن على أى حال سوى جزء صغير من الكرة الأرضية »[2] .

« لقد حكمت الكنيسة بالخطأ على الرأى القائل : بأن الناس يعيشون على الجهات المتقابلة من الكرة الأرضية ، محتجة أنه لو كان الأمر كذلك لما كان الجنس البَشرى منحدراً كله من آدم ، ولما أمكن أن ينقذه المسيح .

---

(١) ولد المؤلف فى بلدة جراند رابيذر بولاية متشيجان بالولايات المتحدة فى ١١ فبراير ١٨٩٩ ، وحصل على دكتوراة الفلسفة من جامعة كولومبيا سنة ١٩٢٢ ، وعين أستاذاً بها وهو رئيس تحرير مجلة « الأفكار التاريخية » وعضو الجمعية الفلسفية .

(٢) تكوين العقل الحديث : ٣١٢/١ وما بعدها .

« ثم اتضح خطأ الكنيسة فى زعمها هذا ، وتقلصت الإمبراطورية الرومانية المتعجرفة التى بدت للناس خلال ألف سنة وكأنها تضم الكرة الأرضية . تقلصت إلى مجرد بحيرة محدودة من مقاطعة واقعة على حوض المتوسط » [١] .

* *

● اكتشاف العلم العربى :

ثم قال : « وسط هذا العالم الذى أخذت رقعته فى الاتساع اتجه رجال القرون الوسطى إلى المعرفة العلمية التى وجدوها فى مكاتب العرب وجامعاتهم الغنية ، وحين أخذ الغرب يستيقظ فى مطلع القرون الوسطى انتقل مركز الثقافة الإسلامية بنتيجة فعل المتعصبين من المصلحين المسلمين ، من الخلافة الشرقية إلى إسبانيا .

« وعن طريق إسبانيا جاءت أول معرفة بمؤلفات أرسطو الكبيرة ولكن المسلمين أنقذوا من العالم القديم شيئاً كان أرسطو - بالرغم من عبقريته - عاجزاً كل العجز عنه وهو العلم الرياضى ، والآلى .

« ويظهر أن عظمة العرب كانت كامنة فى مقدرتهم على تمثل أفضل ما فى التراث الفكرى للشعوب التى احتكوا بها ، أكثر مما كانت فى أى إبداع أصيل [٢] ، فقد أخذوا من العلم اليونانى المعرفة الرياضية والطبية التى احتقرها الرومانيون ، ونبذها المسيحيون جانباً ، فراحوا يعملون - بصبر وجهد - فى ذلك الطريق الذى ازدراه الإغريق فى أوج عظمتهم ، تابعين طريق التطور البطىء والتكيف العملى ، وقد اكتسبوا من الهند الأرقام « العربية » التى لا يمكن الاستغناء عنها ، وشكل التفكير الجبرى الذى لولاه لما استطاع المحدثون قط أن يبنوا على الأسس التى وضعها الإغريق ، وبنوا فى القرن العاشر فى إسبانيا حضارة لم

---

(١) المرجع السابق : ٣١١/١

(٢) هذا الذى يظهر للكاتب وهم باطل فابداعهم نظريات بأكملها ليس معناه مجرد تمثل وذلك كنظريات ابن الهيثم وابن النفيس وابن سيناء والخوارزمى (الجبرى) .

يكن العلم فيها مجرد براعة فحسب ، بل كان علماً طُبّق على الفنون والصناعات الضرورية للحياة العملية .

* *

• الحياة العملية والعلم :

ثم قال [1] : « وعلى الإجمال كان العرب يمثلون فى القرون الوسطى التفكير العلمي والحياة الصناعية العلمية ، اللذين تمثلهما فى أذهاننا اليوم « ألمانيا الحديثة .

« وخلافاً للإغريق : لم يحتقروا المختبرات العلمية والتجارب الصبورة ، أما فى الطب وعلم الآليات ، بل فى جميع العلوم ، فقد استخدموا العلم فى خدمة الحياة الإنسانية مباشرة ، ولم يحتفظوا به كفاية فى حد ذاته ، وقد ورثت أوروبا - بسهولة - عنهم ما ترغب أن تسميه بروح « باكون » التى تطمح فى « توسيع نطاق حكم الإنسان » على الطبيعة » .

ثم قال : « ولقد شهد القرن الثانى عشر عملية التمثيل الكبرى لهذا العلم ، وتم ذلك فى مركزين رئيسيين : صقلية والأندلس ، حيث تلاقت الثقافتان المسيحية والإسلامية .

« وقد ترجمت كتب إقليدس عن اللغة العربية عام ١١٠٠ م ، وصرف « جيرار أوف كريمونا » (١١١٤ - ١١٨٧م) سنين عديدة فى طليطلة ، حيث ترجم عن العربية اثنين وتسعين كتاباً ، بينها الماجسطى لبطليموس وكتاب القانون لابن سينا فى الطب ، وقد استعملت هذه الكتب الجديدة فى « شارتر » حيث وجدت فيها أشهر مدرسة فى القرن الثانى عشر ودرسها « تييرى أوف شارتر » (١٢٠٠ م) و« ويليام أوف كونش » (١١٤٥ م) وعلماء آخرون كثيرون .

---

(١) تكوين العقل الحديث : ٣١٤/١

« وكان كتاب الرياضيات الأساسى الذى استعمل فى القرون الوسطى والذى وضعه « ليونارد » و« بيزانو » ودرس فى باريرى هو الذى أدخل التجديدات العلمية العربية فى أوروبا » .

* * *

• علم الطبيعة فى الذروة بالقرون الوسطى :

قال « ج . هـ . راندل » [1] : « قد ارتبطت الفكرة الأساسية فى العلم التجريبى العامل على اكتشاف الأسس الرياضية لتركيب الطبيعة بنظرية البصريات التى عرفتها « المدرسة العربية الأفلاطونية » . وخاصةً كما وضعها كل من « ابن الهيثم » المسلم و« ابن جبيرول » اليهودى . فالنور الإلهى هو وساطة كل ما فى الطبيعة من علل ، وهو الذى يخلع الصور على جميع الأجسام ، لذلك تخضع كل عملية فى الطبيعة إلى القوانين الهندسية فى البصريات .

« ولقد وضع « ويتليو Witelo » فى بادوا عام ١٢٧٠ م كتاباً فى علم المرئيات اعتمد فيه على ابن الهيثم .

« وعندما جاء منتصف القرن الثالث عشر كانت أسس « علم الطبيعة الإغريقى العربى » هذا قد استقرت بقوة فى أوكسفورد التى أصبحت أيام « غروستست Grosseteste » زعيمة المدارس فى علم الطبيعيات الرياضى المناقض لعلم أرسطو الكيفى ، ولقد ذهب « غروستست » إلى أن هنالك علم طبيعة واحداً كلياً ، هو علم « البصريات » - الهيثمى - وأن مبادئه الرياضية هى مفتاح كل معرفة فى العالَم . وحاول أن يفسر حوادث الطبيعة بالخطوط الهندسية والأشكال والزوايا . لأن الطبيعة تتبع فى أفعالها دائماً أقصر الطرق الرياضية وأفضلها .

---

(١) تكوين العقل الحديث : ٣١٦/٢

« وتولت مدرسة أوكسفورد دور الزعامة فى هذه الثورة الفكرية حتى فى باريس التى كانت قبل ذلك معقل التومائيين (أصحاب مدرسة توما الأكوينى) التى سيطرت خلال المدة (١٢٥٠ - ١٣٠٠ م) » .

* *

● إحياء علم الرياضيات الاسكندرانى :

قال « ج . هـ . راندل » : « وقد شهدت أواخر القرون الوسطى مدرستين علميتين رئيسيتين :

١ - مدرسة « أوكام » وكانت مراكزها المنيعة موزعة بين أكسفورد وباريس فى القرن الرابع عشر .

٢ - مدرسة ابن رشد الأرسطوطاليسية التى كانت على اتصال وثيق مع المدرسة الطبية الكبيرة فى « بادوا » فى القرن الخامس عشر والسادس عشر .

وتناولت الأولى علم التحريك ونظرية الحركة ومنطق الاستمرار ، وتناولت الثانية علم الأصول والتوسع فى التحريك .

وقد تقدمت المدرستان بالاستناد - أولاً - : إلى نقد إيجابى لفلسفة أرسطو الطبيعية .

وتوصل « كوبرنيق » إلى اكتشافه المأثور (عن دوران الأرض) لا من جراء ملاحظة النجوم ، لأن آلاته كانت دون ما توصل العرب إليه بكثير ، وصبره كان دون صبرهم ، إنما من جراء قراءة « شيشرون » الذى لمح أن « هيكتاس » قال بدورة الأرض حول محورها دورة يومية » [١] .

(ولكن يقال « لراندال » : لماذا لا يكون هذا نتيجة قراءته للعرب الذين قالوا ذلك) ؟ .



---

(١) تكوين العقل الحديث : ٣٢٧/٢

● موقف الأوروبيين من العلم الطبيعي :

قال « راندل » : « لقد احتقر الإنسانيون - من بترارك ومَن جاء بعده - الطبيعة ، واتجهوا صوب الإنسان ، وعبر « بترارك » عن احتقاره لاهتمام الناس بالكتب الشعبية الشائعة فى علم الحيوان وطبائعه وفى كتب الأسفار ، لأنه حتى لو كانت جميع الأشياء التى ترويها مثل هذه الكتب صحيحة ، فإنها لا تساعد الإنسان بأى شكل من الأشكال على تحقيق حياة سعيدة ، إذ ما هى الفائدة التى نجنيها عندما نعرف طبيعة الحيوان والعصافير والأسماك والزحافات . بينما نجهل طبيعة الجنس البَشرى الذى ننتمى إليه ولا نعرف أولاً ما يهمنا أن نعرفه عن مصدر حياتنا ، وإلى أين نعود ، ولم يُبدِ - حتى « إيرازموس » العظيم - اهتماماً فى الاكتشافات الكبيرة التى تمت فى أيامه ، لأنه لم يكن فقط عديم الاكتراث بالعلم الطبعى ، بل كان يكرهه فى الواقع وهو يسخر فى مقطع مشهور من كتابه « مديح الحمق » من فلاسفة الطبيعة والرياضيين » .

* * *

● روح البحث العلمى :

قال « هـ . ر . جب » فى كتابه « الاتجاهات الحديثة فى الإسلام » : « أعتقد أنه من المتفق عليه أن الملاحظة التفصيلية الدقيقة التى قام بها الباحثون المسلمون قد ساعدت على تقدم المعرفة العلمية مساعدة مادية ملموسة ، وأنه عن طريق هذه الملاحظات وصل المنهج التجريبى إلى أوروبا فى العصور الوسطى »[١] .

قال « بريفولت » مؤلف كتاب « بناء الإنسانية » : « ولقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة العربية على العالم الحديث ، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج . إن العبقرية التى ولَّدتها ثقافة العرب فى إسبانيا لم تنهض فى عنفوانها إلا بعد مضى وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام ،

---

(١) منهج التربية الإسلامية - لمحمد قطب ص ١١٧ - طبع دار القلم .

ولم يكن العلم وحده هو الذى أعاد إلى أوروبا الحياة . بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوروبية . فإنه على الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحى الازدهار الأوروبى إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة . فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون وأهم ما تكون فى نشأة تلك الطاقة التى تكوّن ما للعالم الحديث من قوة متمايزة ثابتة . وفى المصدر القوى لازدهاره أى فى العلوم الطبيعية وروح البحث العلمى » .

وقال « لوبون » : « ولقد كان أثر حضارة المسلمين فى الغرب قوياً فى الناحية العلمية والأدبية والخُلُقية ، ففى القرن السابع الميلادى هبَّ المسلمون من شبه جزيرة العرب ليكوِّنوا إمبراطورية عظيمة مترامية الأطراف ، فسارت الحضارة فى ركابهم أينما حلُّوا ، وصاحبتهم المدنية كيفما اتجهوا . فلم يقتصر أثرهم الحضارى على الشرق ، وإنما كان تأثيرهم فى الغرب لا يقل خطورة وأهمية » .

* * *

● سعة التراث الإسلامى :

قال « ديورانت » : « ليس ما نعرفه من ثمار الفكر الإسلامى إلا جزءاً يسيراً مما بقى من تراث المسلمين . وليس هذا الجزء الباقى إلا قسماً ضئيلاً وليس ما أثبتناه فى هذه الصحف إلا نقطة من بحر تراثهم » .

* * *

الإسلام يمنح العلوم لأوروبا

قال الأستاذ « بريفولت » الإنجليزى فى كتابه « تكوين الإنسانية » : « فى القرن التاسع تعلّم كثير من المسيحيين عند علماء الإسلام » .

وقال : « إن إيطاليا لم تكن مهداً لحياة أوروبا الجديدة ، بل إسبانيا (الأندلس) ، لأن أوروبا كانت بلغت أشد أعماق الجهل والفساد ظلمة ، بينما العالم العربى - بغداد والقاهرة وقرطبة وطليطلة - كان مركز الحضارة والنشاط العقلى ، ومن ثَمَّ ظهرت الحياة الجديدة التى تمت فى شكل ارتفاع إنسانى جديد .

« وإن رئيس « دير كلوتى » يأسف على أنه رأى أثناء إقامته بالأندلس أن الطلبة من فرنسا وألمانيا وإنجلترا يردون أفواجاً إلى المراكز العلمية العربية .

« حقاً .. إن العلم هبة عظيمة الشأن جاءت بها - بعد ذلك - الحضارة الغربية إلى العالم الحاضر » .

وروى المسيو « كازانوفا » أحد كبار أساتذة الكوليج دى فرانس بباريس كلمات « بريفوت » فعقب عليها قائلاً : « يعتقد الكثيرون منا أن المسلمين لا يستطيعون تمثُّل آرائنا وهضم أفكارنا ، ويعتقدون ذلك ، وينسون أن نبى الإسلام هو القائل بأن : « فضل العلم خير من فضل العبادة » ، فأى رئيس دينى كبير . أو أى قس من القساوسة العظام كانت له الجرأة أن يقول مثل هذا القول الفاصل المتين ؟ هذا القول الذى هو نفسه عنوان حياتنا الفكرية الحاضرة ، نعم .. إن هذا هو مبدؤنا اليوم . ولكن أليس العهد بقريب ، يوم كانت الكافة عندنا من أهل العقول تنظر إلى مثل هذا الشعار كأنه رمز العار ومجلبة الشنار ؟ كما أنه سوف يقال : إن أوضح مبادىء الحرية الفكرية قد كشفت أمثال « لوثر » و« كالڤين » ، وعاد الفضل فيها إلى رجل عربى من رجال القرن السابع ، ذلك هو صاحب شريعة الإسلام » .

وقال الفيلسوف الفرنسى « ايتين دينيه » : « يفخر الغربيون بالعالم « باستور » الفرنسى ، ويجعلونه دُرَّة فى تاج الحضارات الحديثة ، ولكن فاتهم أن جابراً والرازى لا يقلان عنه فى مرتبة العلماء والمفكرين . فهما المؤسسان الحقيقيان لعلم الكيمياء بفضل ما كشفاه من طرق التقطير من الكحول ومن حمض النتريك وحمض الكبريتيك وغيرها » [(١)] .

وقال الدكتور « فيليب حتى » الأستاذ بجامعة برتستون سابقاً : « جاء يوم بلغت فيه الثقافة الإسلامية درجة من السمو والتقدم لم يقابلها فيها غيرها من الثقافات الهندية والصينية فى الشرق ، واليونانية واللاتينية فى الغرب ، وازدهرت فى أيام الخلافة العربية . وعلى عهد الدول الإسلامية - بعدها - تمتعت هذه الثقافة بعصرها الذهبى من متصف القرن الثامن للميلاد إلى مطلع القرن الثالث عشر ، يوم كانت اللغة العربية أداة التعبير عنها . وقد كانت الشعوب العربية هى اللسان المعبر عن تلك الثقافة ، وبينهم السورى والعراقى والمصرى والفارسى والتركى وغيرهم - فى مقدمة مشعل الحضارة فى العالم قاطبة . وجاء عدد المؤلفات فى هذه اللغة فى تلك الحقبة - الفلسفية والطبية والفلكية والجغرافية والرياضية واللغوية - أكثر من عددها بأى لغة أخرى ، من آسيوية أو أوروبية ، والغريب فى أمر العربية التى كانت إلى أواسط القرن الثامن لغة شعر ودين فحسب ، إنها فى خلال قرن واحد تطورت وتقدمت إلى أن أصبحت أداة صالحة لنقل دقائق الفلسفة وحقائق العلوم ومصطلحات الفنون ، وربما لم يكن من مثيل لهذه الظاهرة الغريبة فى تاريخ نشوء اللغات . وبفضل جهود أبناء هذه اللغة فى الأجيال المتوسطة - تسنى لعلوم الأقدمين من هنود ، وساميين ، ويونانيين ، ولاتينيين ، مضافاً إليها ما ابتكره هؤلاء الأبناء على اختلاف عناصرهم القومية أن تنتهى بعد أجيال عديدة إلى غربى أوروبا ، وذلك عن طريق سوريا الصليبية وصقلية وإسبانيا المسلمين ، فتصبح أساس العرفان الذى دان له الفكر الأوروبى فى القرون الوسطى . ورائد السبيل لنشوء النهضة

---

(١) أشعة خاصة بنور الإسلام لـ « ايتين دينيه » ص ٢٠ - ٢١ (٢) المرجع السابق ص ١٢

الحديثة فى أوروبا الغربية التى لا يزال إلى اليوم أبناء أوروبا وأمريكا ينعمون ببركاتها . فبينما كان الأوروبى يتخبط فى ديجور العصور التى أطلقوا عليها - بحقٍ - العصور المظلمة ، كان كتبة العربية وهم يومئذ يشملون معظم المجتمع الإسلامى . يرتقون فى عصرهم العلمى الذهبى » [١] .

وقال أحد المفكرين الغربيين : « إذا كان فى الأرض أديان تعادى العلوم فإن الإسلام على العكس . لا يقوى ولا يزدهر إلا بانتشار العلوم وتقدمها . فإن بينه وبينهما رابطة أكيدة . فلا يمكن عزو الانحطاط الحالى بين المسلمين إلى دينهم ، لأنه كان فيما مضى السبب الوحيد فى رقيهم وعظمتهم » [٢] .

* * *

● فى الرياضيات :

وقال « چورج سارتون » فى مقدمته لتاريخ العالَم : « لقد شهد النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى بزوغ الأيديولوچية العربية فى الرياضيات ، بعد أن كان هذا العلم قاصراً على مجرد النقل والترجمة ، واستمر دفّاقاً حتى مستهل النصف الثانى من عصر البيرونى » (القرن الحادى عشر) .

* * *

● فى الملاحة والكشوف الجغرافية :

قال « روم لاندو » فى كتابه « الإسلام والعرب » [٣] : « إن قائد « فاسكو دى جاما » إلى الهند هو أحمد بن ماجد الذى وضع كتيباً عن الملاحة فى البحر الأحمر والخليج الفارسى والمحيط الهندى ومياه آسيا الجنوبية ويقال : إنه مخترع البوصلة » .

---

(١) تراث العرب العلمى - لحافظ طوفان : ٢٥/٣١ - ٢٧ (٢) المرجع السابق ص ١٠٥

(٣) الإسلام والعرب ص ٢٥٧

ويقول « كاجورى » فى « تاريخ الرياضيات » [١] : « إن المسلمين أول من عرفوا ذلك » . كما قال [٢] : « ويرجع الفضل إلى أبى الوفا فى نسبة اكتشاف بعض أنواع الخلل فى حركة القمر » .

وقال « چوتيه » : « إن الشريف الإدريسى الجغرافى كان أستاذ الجغرافيا الذى علّم أوروبا هذا العلم لا « بطليموس » ، ودام معلماً لها ثلاثة قرون ، ولم يكن لأوروبا مصوّر للعالم إلا ما رسمه الإدريسى ، وهو خلاصة علوم العرب فى هذا الفن ، ولم يقع الإدريسى فى الأغلاط التى وقع فيها بطليموس فى هذا الباب » .

ثم قال :« مَن دار حول إفريقيا ؟ فاسكو دى جاما ، ومَن كشف أمريكا ؟ خريستوف كولمبوس ، ومن السهل أن يُدرك أن هذين الكشفين اللذين فاقا جميع ما تقدمهما .. قد تمّا على أيدى بحارة من العرب ، وكان تحقيقهما متعذراً بدون ارتقاء علم الجغرافيا عند العرب ، وقد تم هذان الكشفان العظيمان بعقول العرب وموادهم وأشخاصهم ، تحت إمرة النصارى » .

وبحق ما قال « سارتيو » فى كتابه « الحضارة » : « إن ما أتت به الحضارة الإسلامية فى باب العلم ، ولا سيما العلوم وتطبيقها ، أعظم بكثير مما أتت به مملكة بيزنطة فى هذا السبيل » .

وقال « تشارلس سيجوبوس Charles Seigabos » فى كتابه « تاريخ الحضارة » : « لقد وصف علماء الجغرافيا منهم الأصقاع البعيدة التى كانت تختلف إليها القوافل ، وقالوا بكروية الأرض منذ ابتداء نهضتهم » .

وأضاف « سيديو » : « وإن المسلمين هم أول مَن قال بدوران الأرض حول

---

(١) تاريخ الرياضيات ص ١٠٦ (٢) نفس المرجع ص ١٠٥

محورها . وضبطوا حركة أوج الشمس وتداخل فلكها فى أفلاك أخر ، وأنهم هم أول مَن حسبوا الحركة المتوسطة للشمس فى السنة الفارسية » [١] .

ويقول « ريسون » فى بحث له عن العرب والتجارة [٢] : « وإن تعجب فاعجب للعرب كيف نبغ بينهم لأسفارهم المترامية أساتذة جغرافيون هذَّبوا فى وقت قصير كتاب « بطليموس » ، وكشفوا بلاداً أخرى لم توطأ بغير أقدامهم ، ووسعوا المصوَّرات للغربيين . وحببوا إليهم التنقل والرحلات » .

وقال « درابر » : « عرف العرب حجم الأرض بقياس درجة سطحها ، وعيَّنوا الكسوف والخسوف . ووضعوا للشمس والقمر جداول صحيحة ، وقدَّروا طول السنة ، وأدركوا الاعتدالين ، ولاحظوا أموراً بعثت نوراً باهراً على نظام العالَم . واختص علماء الفلك منهم باختراع الآلات الفلكية لقياس الوقت بالساعات المتنوعة ، وكانوا السابقين إلى استعمال الساعة الرقاصة لذلك » [٣] .

وقال « سيديو » فى خلاصة « تاريخ العرب » : « إن المسلمين أول مَن قالوا باستدارة الأرض وبدورانها على محورها ، وضبطوا حركة أوج الشمس وتداخل فلكها فى أفلاك أُخَر » [٤] .

كما قال فى كتابه المذكور [٥] : « إن العرب هم مخترعو الاسطرلاب ، وأول مَن حسبوا الحركة المتوسطة للشمس فى السنة الفارسية .

* * *

---

(١) سيديو : خلاصة تاريخ العرب ص ٢٢٣ ، والإسلام والعرب ص ٤٢٩ ، ترجمة منير البعلبكى .

(٢) مجلة المقتبس . المجلد السابع . (٣) الإسلام والحضارة العربية : ٢٢٨/١

(٤) الإسلام والعرب - ترجمة منير البعلبكى ص ٤٣٩ (٥) نفس المرجع ص ٢٣٣

● كشف العرب لجزيرة كريت :

قال « فازيليف »[1] : « كان العرب يعرفون « كريت » من القرن السابع حيث حاصرها أسطولهم فانهزم ولكنه فى عام ٨٢٦ - أو ٨٢٧ - عادت سفنهم الحربية فغنموا وأسروا عدداً كبيراً بعد أن عرفوا المكان معرفة دقيقة » .

*   *   *

● حرفة الطب :

وكانت بالمستشفيات أجنحة للحريم وأخرى للرجال ولبعضها حدائق تزرع فيها الأعشاب الطبية ، ويلحق ببعضها مدارس ، بينما لم يقم فى أوروبا مستشفى واحد إلا مستشفى باريس فى عهد لويس التاسع بعد عودته من الحروب الصليبية (١٢٥٤ - ١٢٦٠ م)[2] .

وكان الطب فى أوروبا عمل الدجالين ، بينما هو فى الإسلام عمل الأشراف ويقوم على أصول علمية ومادية وروحية[3] .

وقال « منرو » : كان النصارى يؤثرون استشارة أطباء المسلمين لتفوقهم على أطباء النصارى فى علاج الأمراض ، ولتجافيهم عن استعمال السكين والمبضع فى الجراحة .

وقال « رفول » : « وكان الطب العربى أساس علم الطب عند الفرنجة ، أخذوه مع كثير من الألفاظ العربية ، وقد بقيت المادة الطبية التى أخذها الغربيون من العرب إلى القرن السابع عشر هى المعول عليها وحدها .. هذا وقد عرف العرب فى القرن السابع من الهجرة الدورة الدموية فى الرئة ، وادعى الإفرنج فى القرن السادس عشر الميلادى أنهم أول مَن كشفوها »[4] .

---

(١) العرب والروم فى فجر الإسلام ص ٥٤

(٢) روم لاندو : الإسلام والعرب ص ٢٦٥ - ٢٦٦

(٣) المرجع السابق ص ٢٦٨

(٤) سينوبوس فى كتابه « تاريخ الحضارة » .

وفى التاريخ العام لـ « لافيس » و« رامبو » : « وكل هذا المجد فى الطب العربى إن لم يبد لنا بأنهم كانوا فيه أرباب نظريات دقيقة ، فهم على الأقل أرباب ملاحظة عاقلة ، لا أرباب تجارب حاذقة وأطباء عمل على غاية من المهارة ، وكان الرازى وابن جابر أول من وضع أساس الكيمياء الحديثة وحاولا كشف الإكسير الذى يهب الحياة ويعيد الشباب ، وعرفوا التقطير والتصعد والتجميد والتحليل وكشفوا الغول من المواد السكرية والنشوية الخاثرة » .

وقال « درابر » : « لقد أنشأ العرب فى العلوم العملية علم الكيمياء ، وكشفوا بعض أجزائها المهمة ، كحامض الكبريتيك ، وحامض الفضة (النتريك) والغول . وهم الذين استخدموا ذلك العلم فى المعالجات الطبية ، فكانوا أول من نشر تركيب الأدوية والمستحضرات المعدنية ، وهم بذلك رواد الصيدلة فى هذا الجانب . بعد أن كانت الأعشاب وحدها هى مجال الصيدلة » .

قالت الدكتورة الألمانية « زيفريد هونكة » فى كتابها « شمس العرب تسطع على الغرب » يروى أنه عندما أراد السلطان عضد الدولة (٩٣٦ . ٩٨٢ م) أن يبنى مستشفى حديثاً فى مدينة بغداد . أوكل إلى الطبيب الذائع الشهرة الرازى بالبحث عن أفضل مكان .

وأما السلطان صلاح الدين (١١٣٨ - ١١٩١ م) - فى القاهرة - . فلقد اختار أحد قصوره الفخمة ، وحوّله إلى مستشفى ضخم كبير أسماه « المستشفى الناصرى » ، وتوافرت فى مستشفيات الخلفاء والسلاطين كل أسباب الرفاهية ، إلى حمامات كانت تتمتع بها الطبقة الحاكمة فى بيوتها . ومن المعلوم أن هذه المستشفيات - على غناها ورفاهيتها - كانت تفتح أبوابها للفقراء ، ولكل أبناء الشعب بدون تمييز .

وعندما انتهى « المستشفى المنصورى » فى القاهرة طلب السلطان « المنصور قلاوون » (١٢٧٩ - . ١٢٩ م) قدحاً من العصير من المستشفى فشربه وقال : إننى قد وهبت هذا المستشفى إلى أندادى وأتباعى وخصصته

للحكام والخدم ، للجنود والأمراء ، للكبار والصغار ، للأحرار والعبيد ، للرجال والنساء على السواء .

ولم يكن هذا كل شيء ، بل إن العناية الجيدة كانت في الواقع عناية لم يكن يعرفها إلا الأمراء » .

وعقدت الدكتورة « زيفريد » مقارنة بين المستشفيات التي أنشئت بادىء ذي بدء في بلاد الفرنجة والمستشفيات الإسلامية فقالت : « إن من أفضل المستشفيات التي أنشئت بادىء ذي بدء في أوروبا كانت مستشفيات « أوتيل ديو » في باريس ، حيث كان ثمت فشٌ كثير موضوع على الأرض ، تزاحم عليه المرضى ، وأقدام بعضهم إلى جانب رءوس بعض ، والأطفال قرب الشيوخ ، والرجال بجانب النساء بشكل يدعو للعجب ، الطعام يُقدَّم لهم في ندرة ، وأما كمية الطعام فضئيلة جداً .

كان المبنى الذي يضم المرضى يزدحم بأخطر الحشرات ، أضف إلى ذلك فساد الهواء في الداخل لدرجة لا تطاق ولا تحتمل ، وكانت جثث الموتى من المرضى تترك مدة أربع وعشرين ساعة ، وفي الغالب أكثر من ذلك قبل أن تُنقل ، فيضطر المرضى الآخرون خلال ذلك الوقت أن يشاطروا الجثث هذا المكان ، الجثث يدب فيها الفساد بسرعة في جو جهنمي كهذا ، فتفوح الروائح النتنة في الأجواء ، وينقض البعوض ويهجم ممعناً نهشاً وآكلاً من اللحم النتن .

وكان مستشفى « ستراسبورج » أول مستشفى التحق به طبيب رسمي ، وكان ذلك عام ١٥٠٠ م ، أي بعد ثمانمائة عام من تأسيس أول مستشفى عربي إسلامي . كان قد أنشأه الوليد بن عبد الملك ، الخليفة الأموي ، وعيَّن فيه الأطباء والممرضين .

وفي سنة ١٥١٧ م أنشأت مدينة ليبزج مستشفى بها أسوة بـ « ستراسبورج » ،

ثم حذت باريس حذوهما فأنشأت مستشفى « أوتيل ديو » عام ١٥٣٦م الذى سبق ذكر سوءاته »[١] .

* * *

● تعقيبات تخصصية :

سبقت الحضارة الإسلامية كل العالَم فى العلاج الطبى منذ فجر الإسلام ، فكان أول مستشفي ميدانى عسكرى فى المدينة المنورة لعلاج جرحى المسلمين أثناء معركة الخندق التي كانت فى الثامن من ذى القعدة سنة ٥ هـ ، واستمرت ١٥ يوماً [٢] .

وجاء الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموى فأسس أول مستشفى حكومى فيه قسم للرجال وآخر للنساء ، وهكذا كانت الحكومات الإسلامية تبنى المستشفيات فيها أقسام خاصة بالرجال وأقسام خاصة للنساء مراعاة لستر العورات ورعاية العفة ، وتجعل فى كل قسم أقساماً متنوعة بتنوع الأمراض ، جراحة أو باطنية أو رمد أو غير ذلك .

كما أقاموا المعازل والحَجْر الصحى للمصابين بأمراض معدية من منطلق أحاديث النبى التى تحضنا على أننا إذا كنا فى بلد فيها وباء فلا نخرج منها إلى غيرها حتى لا تنتشر العدوى ، وإذا كنا خارجها فلا ندخل إليها حتى لا تصيبنا العدوى .

وكان من المشافى مستشفيات عامة لكافة طبقات المجتمع وكافة أنواع المرض ، وأخري خاصة بالأغنياء القادرين على دفع تكاليف العلاج ، وأخرى نوعية تخصصية كمستشفيات الأمراض العقلية والنفسية ومرض الجذام ، وفى

---

(١) الدكتور العبيد عمر : الطب الإسلامى عبر القرون - الشرق الأوسط - ١٩٨٧/٩/١٣

(٢) المغازى - للواقدى : ٢/ ٤٤٠ ، طبع عالم الكتب ببيروت .

المستشفيات العقلية كانت تستخدم الموسيقى ، والعلاج الصحى ، فالعقل السليم فى الجسم السليم .

وأنشأ المسلمون مستشفيات متنقلة تذهب بطاقمها من الأطباء ومعاونيهم إلى القرى بعض الوقت لعلاج ما يتفشى فيها .

كما أقيمت صيدليات ومستشفيات للإسعافات الأولية ، وما نسميه مستشفيات الطوارىء .

* بناء مستشفيات على أسس علمية :

ازدهرت الحضارة الإسلامية فى العصر العباسى ، وأقيم أول مستشفى على أسس وقواعد علمية فى القاهرة خلال القرن التاسع الميلادى على يد أحمد ابن طولون ، وبقى هذا المستشفى حتى القرن الخامس عشر .

كما أنه تم فى القاهرة بناء أضخم مستشفى فى القرون الوسطى شيّده السلطان قلاوون عام ١٢٨٥ م أسماه « مستشفى المنصور » ، لأنه كان يلقب بالمنصور ، وأضيف إلى أقسام المستشفى التخصصية عدة أقسام للمرضى الناقهين ، حتى لا يصابوا بنكسة بعد العلاج بسبب العمل والإرهاق ، أو بسبب عدم التدرج فى نظام الأكل والخدمات الطبية المألوفة ، وألحق به عيادة خارجية ، ومختبرات للتحليلات الطبية ومطاعم تقدم الطعام الصحى للمرضى مجاناً ، ومكتبات عامة متنوعة للإرشاد الصحى ولغير ذلك من الموضوعات التى تملأ وقت فراغ المرضى على مختلف اهتماماتهم .

* المستشفيات الجامعية :

وتميزت بثلاثة أمور هى إلقاء كبار الأطباء محاضرات طبية على تلاميذهم ، ثم تدريبهم على الممارسات الطبية تشخيصاً للمرض وعلاجاً ، ثم عمل امتحان للطالب وإجازته إذا نجح ليمارس المهنة .

* المستشفيات الخيرية والمحددة الأيام :

رعاية للفقراء أنشىء لهم مستشفيات مجانية . وحفظاً للوقت أقيمت مستشفيات يكون العلاج فيها مجاناً فى أيام محددة معلومة للجمهور فلا تفتح طول الأسبوع ، وعندما يخرج المريض من المستشفى معافى بفضل الله يمنح بعض المال ليعيش منه أثناء فترة النقاهة .

* أول مستشفى تخصصى للجذام :

بناه الوليد بن عبد الملك عام ٧٠٧ م

* اختيار مكان المستشفى :

تنبه أطباء المسلمين إلى وجوب اختيار موقع المستشفى فى مكان صحى من حيث المناخ والبُعد عن الأماكن زائدة نسبة الرطوبة وكانت أولى عمليات الاختيار أن وضع الأخصائيون قطعة لحم فى مكان فى ساعة معينة ومثلها فى مكان آخر ثم لوحظ حساب وقت تعفن اللحم ، فالمكان الذى أسرع فيه الفساد يترك ويفضل عليه المكان الآخر وهكذا عملت عدة اختبارات لاختيار أنسب مكان للمرضى .

* الاهتمام بإنشاء المستشفيات :

اهتم خلفاء المسلمين وأمراؤهم بإنشاء المستشفيات ، كما اهتموا بإنشاء المساجد ، فكثرت فى العصر العباسى ببغداد العاصمة وبغيرها من العواصم والقرى . وأحياناً يلحق بالمسجد مبنى للعلاج يقوم عليه طبيب أو أكثر يوم الجمعة . فكان المسجد الجامع يوم الجمعة مصحة للروح وللبدن .

ومن الأمراء الذين لهم دور فى بناء المستشفيات : هارون الرشيد ، وعضد الدولة ، والمقتدر ، ومعز الدولة ، والمعتضد ، وربما تكون مصر من أكثر البلدان التى حظيت بالمستشفيات الإسلامية ، فقد أسس فيها الأمويون مستشفى الفسطاط . وجدد هذا المستشفى أيام الخليفة المتوكل العباسى ، كما بنى أحمد

ابن طولون المستشفى الأعلى ، وبنى كافور الإخشيدى المستشفى الأسفل ، ثم جاء صلاح الدين فبنى فى القرن السادس المستشفى الناصرى فى القاهرة ، وبنى كذلك بيمارستان « مستشفى الإسكندرية » ، وبنى نور الدين محمود زنكى المستشفى النورى الكبير فى دمشق الذى تميز بإحضار القصّاص إليه لسرد القصص والحكايات على المرضى لتسليتهم .

ووصف الرحالة ابن جبير مستشفى صلاح الدين الأيوبى (الناصرى) فقال :

« رأينا من أعمال هذا السلطان المجيدة المستشفى فى القاهرة ، وهو قصر رحب جميل ، ومدير المستشفى رجل قدير ، عنده كل أنواع الأدوية والجرعات الموافقة ، وللنساء رواق خاص ، وتُعنَى بهن ممرضات ، ويلى المدير أمناء يسهرون على راحة المرضي ليلاً ونهاراً ، وقد رتب السلطان فى المستشفى مختلف الأطباء فى كل التخصصات المتميزة فى زمانه .

وكان السلطان يتعرف على أحوال المستشفى ، فهو دائم السؤال عنه ، ويشدّد فى توفير العناية التامة والدائمة للمرضى ، كما رتب الفراشين والفراشات لخدمة المرضي وإصلاح أماكنهم ، وغسل ثيابهم ، وأفرد لكل طائفة من المرضى أمكنة تختص بهم ، فجعلت قاعة للرمد ، وقاعة للجرحى ، وقاعة للنساء وأمراضهن ، ورتب مكان يجلس فيه الأطباء لإلقاء دروس فى الطب ينتفع بها الطلبة ، فهو أشبه أو باكورة المستشفيات بالجامعة فى عصرنا الحديث .

وقد جعل السلطان المستشفى سبيلاً لكل مَن يصل إليه فى سائر الأوقات من غنى وفقير . ولم يقتصر على مَن يقيم به من المرضى ، بل رتب لمن يطلب وهو فى منزله ما يحتاج إليه من الأدوية والأغذية » .

* الإيحاء النفسي :

ومن العبادات زيارة المرضي .. فكان من المسلمين مَن يعودون مرضى المستشفيات بهدايا بسيطة ، وفى أثناء مرور بعضهم بين المرضى يقول أحدهم لصاحبه : هذا المريض - ويشير إليه بحيث يسمعه المريض المشار إليه فى هذا اليوم - أحسن مما كان عليه فى الأسبوع الماضى [١] .

* * *

● فى علم النبات :

قال البروفيسور « سارتون » : لقد كان التراث العربى والإسلامى فى حقل الأعشاب هو فى كل ناحية تقريباً أعظم بكثير من تراث أية أمة أخرى فى هذا الحقل نفسه ، وهذه الاتجاهات الممتازة التى لا نعرف لها نظيراً عند الأمم النصرانية ، وقد أصَّلها خلال النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى جهودٌ رائعة لأربعة من علماء الإسلام ، منهم ابن البيطار صاحب « مفردات ابن البيطار » ، وابن العوام الإشبيلى صاحب « الفلاحة » .

* * *

● الفرائض [٢] والجبر :

يقول « روم لاندو » : إن قضايا الإرث وتقسيم الأراضى وما إليها كان لها أكثر من معنى دنيوى بعد أن درست بتفصيل كبير فى آيات القرآن المنزَّلة ، ولتمكين المسلمين من العمل بموجب هذه الوصايا والأوامر بأقصى الدقة عهد محمد بن موسى الخوارزمى - فى عصر المأمون - إلى وضع جبره الذى بَزَّ جبر الإغريق البدائى وسبقه بمراحل ، ففى الرياضيات الإغريقية لا تستطيع الأعداد أن تنبسط إلا بعمليات الجمع والضرب الشاقة . أما رموز الخوارزمى فى القرن

---

(١) المرجع السابق ، وكتاب أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوروبية ، لأحمد الملا ، وكتاب مآثر العرب فى العلوم العلمية - لسامى حداد .   (٢) الفرائض : علم توزيع أنصبة الميراث .

الثانى عشر عندما ترجم « چيرار الكرمونى » رسالته إلى اللاتينية ، وظلت ترجمته هى الكتاب الرئيسى لتعليم الرياضيات فى الجامعات الأوروبية إلى القرن السادس عشر الميلادى ، بل جاوز أثر الخوارزمى هذا الحد فانعكس أثره فى مؤلفات « ليوناردو فيبوناتشى » والمعلم « يعقوب الفلورانسى » ، وحتى فى مؤلفات « ليوناردو دافنشى » أيضاً .

* *

● فى الفلك :

ثم قال « روم لاندو » : « والحق أن علماء المسلمين الرياضيين كانوا علماء ذلك وممن اشتهروا بالفلك فى القرن التاسع « البتانى » الذى ندين له بفكراتنا عن النسب المثلثية على الوجه الذى يستعمل حتى يوم الناس هذا ، وبإحلال الجيب محل الوتر ، وباصطناع الظلال وظلال التمام ، وبتصحيح نظريات الخوارزمى عن الخاصات القمرية (البعد الزاوى لكوكب من الكواكب عن أقرب نقطة فى فلكه إلى الشمس كما يرى من الشمس) وعن الخسوف والكسوف وعن جيل فلك البروج ، ثم جاء بعده أبو الوفا الذى جاوز بدراسته كوبرنيكوس » .

* *

● شعبية العلوم الراقية :

ثم قال : « ولم يكن علم الفلك شعبياً عند مسلمى الشرق الأدنى فحسب ، بل كان كذلك شعبياً عند مسلمى المغرب حتى اختراع الزرقانى أسطرلاباً جعله من مشاهير المسلمين الذين نقل عنهم كوبرنيكوس .

وأهم مظهر من مظاهر خدمة المسلمين فى حقل الرياضيات هو أنها كانت تعبيراً عن إيمانهم الدينى ، ذلك بأنهم لم يقاوموا العقيدة نفسها ، بل قاوموا انحرافات العقيدة التى حاول فرضها بعض الخبثاء فكرياً » [١] .

* * *

(١) الإسلام والعرب ص ٢٥٣ ، ٢٥٤

● التجربة والاختراع :

قال « درابر » : « ومن عادة العرب أن يراقبوا ويمتحنوا ، وقد حسبوا الهندسة والعلوم الرياضية وسائط للقياس ، ومما تجدر ملاحظته أنهم لم يستندوا فيما كتبوه فى الميكانيكيات والسائلات والبصريات على مجرد النظر ، بل اعتمدوا على المراقبة والامتحان ، بما كان لديهم من الآلات .. وذلك ما هيأ لهم سبيل ابتداع الكيمياء ، وقادهم لاختراع أدوات التصفية والتبخير ورفع الأثقال .. ودعاهم إلى استعمال الربع والاسطرلاب فى علم الهيئة ، واستخدام الموازنة فى الكيمياء ، مما خُصُّوا به دون سواهم ، وهيأ لهم صنع جداول للجاذبية النوعية . وعلم الهيئة على نحو ما صنع من مثلها فى بغداد والأندلس وسمرقند ، ففتح لهم بذلك باب تحسين عظيم فى قضايا الهندسة وحساب المثلثات ، واختراع الجبر واستعمال الأرقام فى الحساب ، وكان هذا كله من نتائج استعمالهم طريقة الاستدلال والامتحان .

ولم يقرروا فى علم الهيئة لوائح فقط . بل رسموا خرائط النجوم المنظورة فى فلكهم أيضاً ، مطلقين على ذوات القدر الأعظم أسماء عربية لا تزال تتردد على كُراتنا الفلكية » .

* فى الميكانيكا :

يقول « درابر » : « لقد قرر العرب فى الميكانيكيات نواميس سقوط الأجسام ، وكان لهم رأى جلى من جهة طبيعة الجاذبية ، ورأى سديد فى القوات الميكانيكية ، واصطنعوا فى نقل الموائع وموازنتها الجداول الأولى للجاذبية النوعية . ورأى سديد فى عوم الأجسام وغرقها فى الماء وكانوا عارفين كل المعرفة بعلم الحركة » .

* * *

● منهج البحث متفرع عن الإسلام :

قال « ويلز » : « وقد جاء العرب بمبدأ فى البحث جديد ، مبدأ يتفرع عن الدين نفسه وهو مبدأ التأمل والبحث .

ثم هل تعرفون بأى كتاب من كتب العهد العتيق كان يتعلق المسلمون ؟

كان اهتمامهم بكتاب أرسطو أكثر منه بخيالات أفلاطون ، نعم كان كل اهتمامهم بكتاب ذلك الحكيم المدقق وواضع أساس العلم فى الحقيقة .

ثم إنهم مالوا إلى الاشتغال بعلوم الطبيعة وبرعوا فيها وهم الذين وضعوا أساس علم الكيمياء وقد وجد فيهم كبار الأطباء .

ولفرط تقديرهم للحياة الدنيا نبغ فيهم الشعراء المجيدون الذين قالوا شعراً ، إذا وصفناه بأنه أرضىٌّ ، فذلك لأنه قريب من العقول ، يغذيها وينعمها ، وإنه أفضل من خيالات شعراء القرون الوسطى بألف مرة ، فأين هذه الحياة من تخبط الغرب المسيحى فى تماثيله وأوهامه وانزوائه » !!

* * *

● الدين ونشأة العلوم الكونية :

قال « روم لاندو » [1] : « والظاهرة المذهلة حقاً فى إسهام العرب الرياضى فى الصلة الوثيقة ما بين مكتشفاتهم فى هذا العلم وبين مبادىء الدين وأوامره . فلأغراض الدين أمسى من الأمور الهامة جداً عند المسلم أن يضبط موضع الكعبة على نحو يقينى - بالنسبة إلى مختلف أجزاء العالم التى يحيا فيها المسلمون وأن يحدد على وجه الضبط مواقيت إشراق الشمس وطلوع القمر التى تمكن الجماعة الإسلامية من تنظيم صوم رمضان ، وأخيراً أن يمسح الأراضى ابتغاء تقسيم الضياع بعد أن اقترن تجزىء الأرض الموروثة على نحو مشترك بتصديق إلهى فى القرآن .

---

(١) تراث العرب العلمى - لقدرى حافظ طوقان ص ٢٤٧ ، الطبعة الثالثة .

ولإنجاز هذه المهام المختلفة كلها اضطر المسلمون إلى انشاء طرائق رياضية كان لا بد لها - إلى جانب شرطى البساطة والصفة العملية - أن تكون بالغة الدقة ، وواضحٌ أنه ما كان لهم أن يبلغوا هدفهم هذا لو اعتمدوا على نظام الأرقام الرومانية الثقيل المربك آنذاك ، وعلى الهندسة والجبر الإغريقيين البدائيين نسبياً » .

* * *

● نشأة المنهج العلمى التجريبى :

ثم قال « بريفولت » [١] : « إن ما يدين به علمنا لعلم العرب ، ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة ونظريات مبتكرة ، بل يدين هذا العلم الأوروبى كله إلى الثقافة العربية بأكثر من هذا . إنه يدين لها بوجوده نفسه . فالعالم القديم - كما رأينا - لم يكن للعلم فيه وجود .. علم النجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علوماً أجنبية استجلبوها من خارج بلادهم . وأخذوها عن سواهم ولم تتأقلم - فى يوم من الأيام - فتمتزج امتزاجاً كلياً بالثقافة اليونانية .

وقد تعلم اليونان المذاهب وعَمَّموا الأحكام ووضعوا النظريات ، ولكن أساليب البحث فى دأب وأناة ، وجمعَ المعلومات الإيجابية وتركيزها . والمناهج التفصيلية للعلم ، والملاحظة الدقيقة المستمرة والبحث التجريبى - كل ذلك كان غريباً تماماً عن المزاج اليونانى .

أما ما ندعوه « العلم » فقد ظهر فى أوروبا نتيجة لروح من البحث جديدة ، ولطرق من الاستقصاء مستحدثة من طريق التجربة والملاحظة والمقاييس ، ولتطور الرياضيات إلى صورة لم يعرفها اليونان . وهذه الروح وتلك المناهج العلمية أدخلها العرب إلى العالم الأوروبى .

---

(١) تراث العرب العلمى ص ١٢٤ ، الطبعة الثالثة .

وقال « روم لاندو » : الفرق بين الرياضيات الإغريقية والعربية ليس علمياً فحسب ، ولكنه يدل على تغاير عميق فى ضروب الاستنزاف الروحى والإيديولوجى .

وقال « دريبر » الأستاذ بجامعة نيويورك فى كتابه « النزاع بين العلم والدين » : « تحقق علماء المسلمين من أن الأسلوب العقلى النظرى لا يؤدى إلى التقدم ، وأن الأمل فى وجدان الحقيقة يجب أن يكون معقوداً بمشاهدة الحوادث ذاتها ، ومن هنا كان شعارهم فى أبحاثهم « الأسلوب التجريبى » والدستور العملى الحسّى .

إن نتائج هذه الحركة العملية تظهر جلية فى التقدم الباهر الذى نالته الصنائع فى عصرهم ، وإننا لندهش حين نرى فى مؤلفاتهم من الآراء العلمية ما كنا نظنه من نتائج العلم فى هذا العصر .

ومن ذلك أن مذهب النشوء والارتقاء للكائنات العضوية الذى يعتبر مذهباً حديثاً كان يدرس فى مدارسهم ، وقد ذهبوا فيه إلى مدى أبعد كما وصلنا إليه . وذلك هو بتطبيقه على الجوامد والمعادن . وقد استخدموا علم الكيمياء فى الطب ، ووصلوا فى نظريات الضوء والإبصار إلى أن غيّروا الرأى اليونانى القائل : بأن الإبصار يحصل بوصول شعاع من البصر إلى الجسم المرئي . وقالوا بالعكس ، وكانوا يعرفون نظريات إنعكاس الأشعة وانكسارها .

وقد اكتشف الحسن بن الهيثم (١) الشكل المنحنى الذى يأخذه الشعاع فى سيره فى الجو . وأثبت بذلك أننا نرى القمر والشمس قبل أن يظهرا حقيقة فى الأفق ، وكذلك نراهما فى المغرب بعد أن يغيبا بقليل (٢) .

---

(١) أو على الحسن بن الهيثم من علماء القرن الرابع الهجرى . له حوالى مائة كتاب فى الرياضة والطبيعة وغيرها ، وأهمها « المناظر » الذى ترجم إلى اللاتينية فى القرن السادس عشر الميلادى .

(٢) محمد فريد وجدى - الإسلام دين عام خالد - ص ٢٣٣

وقال « ليترى » : لو حُذِف العرب من التاريخ لتأخرت نهضة الآداب عدة قرون فى الغرب .

وفى تقدمهم المثير فى حقل الرياضيات وجدوا فى لغتهم الرخصة نفسها مسعفاً رائعاً ، ذلك بأن العربية - وهى لغة مرنة غنية دقيقة - تساعد - أروع ما تكون المساعدة - على صحة المصطلح العلمى ، وقد طوَّر المسلمون الأرقام بسلسلتيها العربية والغبارية (الإفرنجية) إلى ما هى عليه الآن ، وابتكروا « الصفر » الذى لم تستعمله أوروبا إلا بعد قرنين ونصف (أى فى القرن الثانى عشر الميلادى) .

* * *

● ما الدوافع إلى تقدم المسلمين العلمى ؟

وقال « روم لاندو » : لقد أحرز المسلمون تقدماً ثقافياً خلال . . ٢ سنة بعد وفاة الرسول ، بينما ظلت المسيحية نحو ألف وخمسمائة عام قبل أن تُوجَد ما يُدْعَى حضارة مسيحية ، فما هى أسباب التفوق العربى ؟ ثم أجاب قائلاً :

١ - إنها رغبة متقدمة فى اكتساب فهم أعمق للعالم كما خلقه الله .

٢ - قبول للعالم المادى بوصفه صنواً للعالم الروحى .

٣ - واقعية قوية تعكس - فى صدق - طبيعة العقل الإسلامى اللاعاطفى .

٤ - نهم طبيعى إلى المعرفة لكل ما صدر عن الله ودليل قدرته ، فهو جدير بالتأمل والدرس تنفيذاً لآيات التأمل . ولذا كشف « الطاعون » أولاً علماء المسلمين المغاربة كما فى : ابن الخطيب الغرناطى (١٣١٣ - ١٣٧٤ م) وهو مؤرخ وسياسى أيضاً ، وكذلك ابن خاتمه (١٣٢٣ - ١٣٦٩م) وكان شاعراً ومؤرخاً وطبيباً ، وكتابه الأول هو « فى الطاعون » ، وكتابه الثانى سماه « الموت الأسود » وقد لاحظ هذا فى الطاعون العالمى الذى اجتاح الهند سنة ١٣٣٣ م متجهاً إلى روسيا الشرقية ، ثم انتقل عبر سوريا والقسطنطينية

إلى أوروبا الجنوبية ليجتاح آخر الأمر إسبانيا جنوباً وإنجلترا شمالاً ثم يعم أوروبا .

هذا بينما كان الفرنجة يرجعون سره إلى ولادة عجل برأسين اثنين أو إلى اليهود أو إلي الثوران البركاني . ويتمثل الارتباط بين العلم والتدين في ابن سيناء ، فقد كان إذا استعصت عليه مسألة ذهب إلى المسجد يتعبد ويرجو الله .

* * *

● دلائل تكوين الإسلام للعباقرة حالياً :

تحدث « چيمس إيروين » قائد سفينة الفضاء الأمريكية « أبوللو » عام ١٩٧١ فقال [١] : إن « الدكتور فاروق الباز » [٢] لعب دوراً هاماً في الإعداد لرحلة الفضاء ، وقام بتدريب « إيروين » ضمن مَن دربهم من رواد الفضاء على الهبوط على سطح القمر ، وحدد لهم الأماكن التى سينزلون عليها وشرح لهم طبيعتها .

ثم قال : إن دهشته كانت كبيرة عندما وجد أن الأماكن التى هبط عليها كانت بنفس المواصفات التى حددها له الدكتور « الباز » على الأرض ، كما دربهم على التقاط الصخور من على ظهر القمر وكيفية انتقائها .

وقال : إن الدكتور « الباز » كان يمضى ساعات طويلة من الليل فى الاتصال ، برواد الفضاء أثناء رحلتهم إلى القمر ، بينما هو جالس فى مركز المراقبة الأرضية فى قاعدة « كيب كيندى » .

وهنالك فى أمريكا وأوروبا من الأساتذة المسلمين كثيرون لو أنهم سُحِبوا من

---

(١) أخبار اليوم فى ١٩٧٥/١/١١

(٢) عالم مسلم مصرى يعمل مدرساً للأبحاث فى مركز دراسات الأرض والكواكب فى الولايات المتحدة الأمريكية .

مواقعهم العلمية الهامة لاختل الكيان العلمى والاقتصادى هناك ، وبخاصة لو انسحب معهم غيرهم من العرب والشرقيين غير المسلمين وعلى سبيل المثال :

- الدكتور مراد أبو سبع : أستاذ علم الميكروبولوچيا بإحدى الجامعات الأمريكية .

- الدكتور سعد الدين حافظ ، وقد نجح فى أبحاث نقل الجنين الإنسانى من رحم الأم ، وعمل على تربيته فى « أنابيب الاختبار » فترة من الوقت وهو صاحب مشروع « طب الرجال » بإحدى جامعات ألمانيا .

- الدكتور محمد الوكيل : أستاذ الهندسة النووية والكهربائية فى جامعة وسلكنس الأمريكية .

- الدكتور شريف بسيونى : سكرتير رابطة العلماء المصريين فى أمريكا وأستاذ القانون الجنائي .

- الدكتور محمد عبد الهادى : رئيس قسم الاستشعار بجامعة أوكلاهوما الأمريكية .

- الدكتور عبد الرحيم عمران : رئيس قسم السكان بجامعة نورث كارولينا الأمريكية ومستشار الأمم المتحدة لشئون السكان . وله دراسة وافية عن مشكلة السكان فى مصر .

وعدا هؤلاء الذين فى الغرب أمثالهم كثيرون فى العالم العربى والإسلامى .

* *

• إفلاس الحضارة الغربية :

قال كاتب أمريكى عن الحضارة الغربية [١] : إنها فى نزاع واضطراب مع الإنسانية ، لأن المخترعات وآثارها - وهى من عمل العقل الواعى - قد سبقت العقل الباطن لأوروبا .

* * *

---

(١) نقد مستقبل الثقافة فى مصر - لسيد قطب - ص ١٨

الحملات العلمية

قال « أ . أ . فازيلييف » : « ومما يكشف لنا عن تركز الطلعة العلمية فى القرن التاسع الميلادى إنشاء حملات علمية بمعنى الكلمة ، فإن الواثق أرسل فى أيامه العالِم العربى المشهور « محمد بن موسى » بإذن من الإمبراطور « ميشيل الثالث » إلى أفسوسى ، لزيارة الكهف الذى حفظ فيه رفات أهل الكهف السبعة الذين استشهدوا - كما تقول الآثار - فى اضطهادات « دبسيوس » .

وأرسل الإمبراطور الرومي دليلاً ليصاحب العالم العربى ، ولقى الزائرون عند دخول الكهف خصيّاً على جمال بارع - تهدّد العالِم بأفظع المحن إن مسٌ جزءاً من الرفات ، ومع ذلك دخل « محمد » الكهف ، ورأى الرفات ولمس الجثة . فلما خرج قال للحارس : « كنا نظن أنك سترينا أمواتاً فى صورة أحياء ، ولكنّا لم نر شيئاً من هذا » .

وقد يكون السبب الرئيسى فى حدوث هذه البعثة العلمية التى قصصناها ذلك الميل الاعتزالى الذى شمل الدين منذ عهد المأمون .

كما نظم الواثق حملة كبيرة رأسها المترجم « سلام » الذى كان يعرف ثلاثين لغة ، فوُجِّه إلى آسيا الصغرى ليكتشف السور الذى بناه الإسكندر - فيما تقول الآثار - سداً بيننا وبين يأجوج ومأجوج ، ودامت الحملة ٢٨ شهراً . فلما عاد أعضاء البعثة كافأهم الخليفة ، وسلّمه « سلام » بياناً وافياً عن الحملة .

ونحن نعرف ما كان من مفاوضات متكررة دخل فيها الإمبراطور « تيوفيل » والمأمون أكثر من مرة فى أمر « ليون » العالم الرومى المهندس الفلكى ، وكان هذا الخليفة المتنور يتوق إلي رؤية « ليون » ولو لوقت محدود ليستفيد من علمه الواسع فى الرياضيات .

ومن الشيق أن نلاحظ أن علاقة العرب الشرقيين والروم - فيما عدا الحرب - لم تتميز قط بصفة الخصومة ، بل كانت أقرب إلى التواد . وقد تستطيع أن تتخذ دليلاً على ذلك من حملة أفسوس العلمية التى عرضنا لها آنفاً ، والتى كانت مختلطة « رومية - عربية » ، ومن مثول « ليون » الفلكى الرومى فى بلاط الخليفة ببغداد [1] .

* * *

(١) العرب والروم فى فجر الإسلام ص ١٦

دور المسجد فى التعليم

قال « آدم متز » : [١] إن معظم دروس الفقه والكلام (العقائد) تعطى فى المسجد ، والمستمعون على هيئة حلقة بين يدى المدرس ، وكان هذا يتخذ مكانه إلى جانب أسطوانة فى المسجد مستنداً إليها بظهره إن أمكن .

وفى عام ٣١٤ هـ (٩٢٦ م) برد الهواء برداً شديداً وسقط ببغداد ثلج كثير وجمدت دجلة بأسرها بالموصل حتى عبر الناس عليها ، وجلس المحدّث المعروف بأبى زكرة فى وسط دجلة على الجمد ، وأملى الحديث [٢] .

وقد أحصى المقدسى فى المسجد الجامع بالقاهرة - وقت العشاء - مائة وعشرة مجلساً من مجالس العلم .

وكان جامع المنصور ببغداد - وهو أقدم مسجد جامع بها - أشهر مركز للتعليم فى المملكة الإسلامية ، ويحكى أن الخطيب البغدادى لما حج شرب من ماء زمزم ثلاث شربات وسأل الله عزّ وجلّ ثلاث حاجات أخذاً يقول النبى ﷺ « ماء زمزم لما شُرِب له » ، فالحاجة الأولى أن يحدّث بتاريخ بغداد ، والثانية أن يملى الحديث بجامع المنصور ، والثالثة أنه يُدفن إذا مات عند قبر بشر الحافى .

وقد جلس إبراهيم بن محمد نفطويه (المتوفى عام ٢٢٣ هـ = ٩٣٥ م) وكان من أكبر العلماء بمذهب داود الأصبهانى إلى أسطوانة بجامع المنصور خمسين سنة لم يغير محله منها [٣] .

وكان مدرسو الفقه أكثر العلماء تلاميذ وذلك طبعى لأن الفقهاء يعلمون العلم الذى يؤهل أصحابه لتولى مناصب يعيشون منها .

* *

---

(١) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى : ١/٢٩٣ - ٢٩٧

(٢) المنتظم - لابن الجوزى ص ٣١ (أ) . (٣) الإرشاد - لياقوت ص ٣٠٨

● كثرة الأساتذة :

قال « آدم ميتز » (١) : لو قارنا عدد التلاميذ فى ذلك العصر لوجدناه صغيراً بالنسبة لما نراه اليوم ، وهذا يدل على كثرة العلماء بالنسبة إلى التلاميذ ، فقد كان أبو حامد بن محمد الأسفرابينى (المتوفى عام ٤٠٦ هـ = ١٠١٥ م) إمام أصحاب الشافعى حتى قيل إنه أفقه وأنظر منه (أقوى فى المناظرات) وكان يدرس بمسجد عبد الله بن المبارك ببغداد وكان يحضر مجلسه ما بين ثلاثمائة وسبعمائة فقيه .

وكان أبو الطيب الصعلوكى الفقيه الأديب مفتى نيسابور - وهى مركز علماء خراسان - ويقال : إنه حضر مجلسه أكثر من خمسمائة طالب علم فى عشية الجمعة ٢٣ من المحرم سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) .

وكان يقعد بين يدى أحد أصحاب الجوينى - الإمام الفرد - المتوفى عام ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) فى كل يوم ثلاثمائة من الأئمة والطلبة (٢) .

هذا على أننا نجد اليوم فى كشغر - مثلاً - مع أنها ليست مركزاً دينياً كبيراً أن أكثر من خمسمائة طالب علم يحضرون دروس أكبر العلماء .

وكان عدد الطلاب يعرف بإحصاء محابرهم التى يضعونها أمامهم والتى كانت أهم عتاد الطالب ، وكان الطلبة يحضرون كتبهم فى شىء يسمى القارورة ولعلها سميت بهذا الاسم من قبيل الفكاهة العلمية لأن القارورة هى المحبرة .

* * *

(١) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى : ١٩٦/١

(٢) السبكى فى طبقاته : ٢٥٢/١

الإملاء والتدريس من كتاب

قال « آدم ميتز » [1] : وكان الإملاء فيما مضى من الزمان يعتبر أعلى مراتب التعليم (كما قال السيوطى فى المزهر) [2] ، وكثيراً ما كان المتكلمون واللغويون فى القرن الثالث الهجرى يتبعون طريقة الإملاء خاصة .

فيحكى أن الجبائى المعتزلى أملى (. . . ر. ١٥) ورقة ، وما رئى ينظر فى كتاب إلا يوماً فى زيج الخوارزمى ، وقد أملى أبو على القالى خمس مجلدات .

وكان المستملى يكتب أول القائمة : « مجلس أملاه شيخنا فلان بجامع كذا فى يوم كذا » .

* * *

● الدقة فى تسجيل المحاضرات :

وعندنا من خبر كتاب « الياقوت فى اللغة » لأبى عمرو المطرز (المتوفى فى عام ٣٤٥ هـ = ٩٥٦ م) ما يرينا كيف كان ينشأ الكتاب من الإملاء . ابتدأ المؤلف بإملاء هذا الكتاب يوم الخميس لليلة بقيت من المحرم سنة ٣٢٦ هـ (٩٣٧ م) فى جامع المنصور ببغداد إرتجالاً من غير كتاب ولا دستور ومضى فى الإملاء مجلساً مجلساً إلى أن انتهى إلى آخره ثم رأى الزيادة فيه فزاد فيه أضعاف ما أملى وكتب هذه الزيادة أحد تلاميذه ثم قرأه عليه « أبو إسحاق الطبرى » وسمعه الناس ثم زاد فيه بعد ذلك ، وقرىء عليه بالزيادة يوم الثلاثاء لثلاث بقين من ذى القعدة سنة ٣٢٩ هـ (٩٤١ م) وفرغ منه فى ربيع الثانى سنة ٣٣١ هـ (٩٤٢ م) وحضرت نسخ جميع مَن كتب فقورنت ، ثم زاد

---

(١) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى : ٣٩٧/١

(٢) الجزء الثانى ص ١٩٩ طبع مصر سنة ١٩٣٥

المؤلف بعد ذلك أشياء أخرى كتبها « محمد بن وهب » ، ثم جمع الناس ووعدهم بعرض أبى إسحاق عليه هذا الكتاب وتكون آخر عرضة يتقرر عليها الكتاب ولا يكون بعدها زيادة [١] .

* * *

● الرحلات العلمية :

وقال « ألدوميبلى » : وعرف أصحاب الرحلات والجغرافيون العرب معرفة جيدة نسبياً شبه جزيرة الملايو الهندية والصين الحقيقية .

وإلى جانب عهود الفتور والركود قامت عهود نشاط تجارى قوى بين العالم الإسلامى والشرق الأقصي ، ولدينا أيضاً عدد من أوصاف الرحلات من بينها ومن أوائلها الوصف الذى كتبه « سليمان التاجر » الذى زودنا بمعلومات مفيدة عن عادات الصين .

وهناك دراسة لأخبار أخرى عن هذه الرحلة كما توجد نصوصها فى :

« ج . ت . رينو : قصص الرحلات التى قام بها العرب والفُرس فى الهند والصين فى أثناء القرن التاسع - نص عربى مع ترجمة فرنسية ومقدمة وتعليقات - جزءان طبع باريس سنة ١٨٤٥ » .

كما يوجد ذلك أيضاً فى كتاب أحدث عهداً لـ « جبريل فران » هو قصص الرحلات ، ونصوص جغرافية عربية وفارسية وتركية تتصل بالشرق الأقصى فى القرن الثامن .

* * *

---

(١) ابن النديم فى الفهرست ص ٧٦

أثر الحروب الصليبية فى الغرب

كتب المستشرق « أ . أ . فازيلييف » : كتابه « العرب والروم فى فجر الإسلام » وقد جاء فيه [1] :

١ - تبادل الأفكار :

فى خلال القرن التاسع كله لم تكد تنقطع المصادمات بين الروم والعرب . فإذا قرأنا مؤرخى الروم أو العرب ووصفهم المعارك على وتيرة جافة .. فإنَّا قد لا نرى فى هذا - لأول نظرة - إلا الجانب القاتم ، والواقع أنه يوجد شىء غير ذلك . فإن اتصال هذه المعارك بما يستتبع من علاقات ممتدة غير مقصودة بين شعبين كبيرين لا يخلو من أثر على التطور الداخلى لدى كل من الإمبراطوريتين .

وإذا كانت التجارة قد تأتى فى المكان الأول من حيث هى عامل فى التطور الثقافى للشعوب ، فإن الحوادث السياسية أيضاً قد خدمت الثقافة فى كثير من الأحيان . إذ يتطاحن شعبان غريبان بدافع من طبيعة الأشياء . فيتبادل المنتصرون والمنهزمون الأفكار الجديدة والعادات والأخلاق واللغات والآداب . ولذلك كان يجب أن ينتج من ذلك حياة داخلية نشيطة .

وإنَّا لنجد فعلاً فى حوادث الشرق الحربية فى القرن التاسع وقائع وعادات تُعَد مكوِّنة لما نسميه اليوم « القانون الدولى » .

والواقع أن بيزنطة كانت تحتفظ للعرب بمكان الصدارة بين جيرانها .

ثم إننا نجد فى البروتوكول الذى وضعه « قسطنطين البورفيرى » صيغاً ودّية إلى حد كبير معدة للقاء سفراء بغداد أو القاهرة . ومن المراسيم التى وضعها أن يجلس الأصدقاء السراقنة في مرتبة أعلى من الأصدقاء الفرنج . ولسراقنة الشرق المرتبة الأولى بين كل السراقنة .

---

(١) ص ١٧ وما بعدها .

٢ - فى شكل الحكم :

وكان لا بد أن يخضع الروم لتأثير الحضارة العربية الشرقية ولأشكال حكومتها العامة ، ولا يزال النظام الأوتوقراطى إلى اليوم أقرب النظم إلى فهم المسلمين ، وهو عندهم أسرع قبولاً . وإن بيزنطة القرن التاسع كانت تشبه الخلافة فى أكثر من وجه [١] .

فالعصر الإيقونى الثانى يقابل فيما نرى النزعة الاعتزالية التى سار فيها الخلفاء ، وهو عصر انتهى برد فعل فى صالح الأوثوذكسية فى عام ٨٤٣ م .

وكان البلاط الرومى يتميز كذلك بالترف ويتميز بالبهاء الشرقى الأصيل .

٣ - بين المأمون وتيوفيل :

وكان « تيوفيل » فى الأربع السنين الأولى من حكمه يعاصر الخليفة المأمون (٨١٣ - ٨٣٣ هـ) ، وكان هذا الملك يشبه فى نشاطه « تيوفيل » فى أكثر من جهة . فإن مثل المأمون كمثل « تيوفيل » فى الاهتمام بالمسائل الدينية واستثارة المعارضة بالتجديد فى الدين .

وقد اهتم المأمون - كتيوفيل - بالشعر . وقد ألف المأمون بعض المؤلفات الثيولوچية ، وفى عهده ازدهر البناء والفنون الأخرى ، وكذلك العلوم ، ولم يكن القصر الصيفى الذى ابتناه الإمبراطور الرومى إلا محاكاة لقصر من قصور الخليفة [٢] .

ويقول « هرنشو » [٣] : لقد تماسّت النصرانية والإسلام فى الأرض المقدسة (فلسطين) وما يجاورها فى صقلية وجنوبى إيطاليا والأندلس ، ولم يكن هذا التماس بحال من الأحوال عدائياً ، لا فى جملته ولا فى نفس الأساس الذى قام عليه . فكما أن « بلعام » خرج ليدعو على بنى إسرائيل ، فإذا به يدعو لهم .

---

(١) انظر مثلاً « كريمر » : التاريخ الثقافى للتبادل بين أوروبا والشرق ، فيينا سنة ١٨٧٦ ص ١ -

(٢) أرن . ينس : حقوق الشعوب فى العلاقات بين العرب والروم فى مجلد القانون الدولى والتشريع المقارن - المجلد ٢٦ - ١٨٩٤ ص ٤٦١ ، ويوجد منه مستخرة (بروكسل سنة ١٨٩٤) .

(٣) هرنشو مؤرخ إنجليزى ، وكتابه « علم التاريخ » نقله إلى العربية عبد الحميد العبادى .

فكذلك الصليبيون خرجوا من ديارهم لقتال المسلمين . فإذا هم جلوس عند أقدامهم يأخذون عنهم أفانين العلم والمعرفة . لقد بُهت أشباه الهمج - أعنى المقاتلين الصليبيين - عندما رأوا « الكفار » - يعنى المسلمين - الذين كانوا ينكرون من الناحية اللاهوتية ديانتهم « الإسلامية » - على حضارة دنيوية ترجح حضارتهم رجحاناً لا تصح معه المقارنة بينهما .

وقال « سنيوبوس » : بدأت الصلات بين الغربيين والشرق بحرب بين المؤمنين ، وانتهت بمسائل قامت بين المتجرين ، وتحضّر الغربيون باحتكاكهم بالشرقيين ، وأثّر هذا الاختلاط فى أفكار النصارى الدينية ، فتحمّسوا أولاً للنزال والطعان ، ولما شاهدوا المسلمين عن كثب ، ورأوا فيهم رجالاً أشداء منوّرين كرماء أمثال « صلاح الدين » ، الذى أخلى سبل أسرى النصارى بدون فدية ، وبعث بطبيبه إلى أحد زعماء الصليبيين ليداويه من مرضه ، بدأوا باحترام المسلمين .

ويقول « مكسيم بتى »[1] : عرف الصليبيون أن عدم التجانس فى جيوشهم وقلة الوحدة فى قيادتهم ، دعا إلى أن ركب أعداؤهم أكتافهم فى الروم وأرض الإسلام ، وقرّبت هذه الحرب بين شعوب أوروبا ، وساعدت على إيجاد فكرة أوروبية ، وعلّمتهم وخصومهم كيف يحترم كل منهما الآخر ، وعُقدت بينهم المعاهدات والصلات خلال المهادنات ، وقد جهّز « ريشاردس » (قلب الأسد البريطانى) فئة من العرب جعلهم فرساناً ، وعقدت عقود أنكحة بين الطائفتين ، ودخل التسامح فى الأخلاق . وبعث « فريدريك سبوتا » إلى صلاح الدين يمتدحه وقال : إن أكثر المسلمين يكتفون بزوج واحدة . بخلاف الصورة المأخوذة عنهم ، ولقد أثار سلوك صلاح الدين مع الصليبيين سنة ١٠٩٩ م الدهشة وعجبهم .

وقال « ليبون » : إن الصليبيين على ما أهرقوا من دماء ، وبذلوا من أموال ، رجعوا بعد قرنين بخفى حنين ، غير أن اختلاطهم بالمسلمين قرنين كان من العوامل

---

(١) تاريخ الشعوب العام .

القوية فى انتشار المدنية فى أوروبا ، ونحن نعرف أن الشرق بفضل العرب كان ينعم إذ ذاك بمدنية باهرة ، على حين كان الغرب غارقاً فى التوحش ، فى كل مكان ينهبون ويذبحون ، لا فرق بين عدوهم وصديقهم ، خرّبوا فى القسطنطينية أثمن كنوز العاديات اليونانية واللاتينية ، وأنتج ذلك التوحش كراهة الشرق للغرب ، وتأصل الحقد الصليبى واستعذب إهراق الدماء بدعوى نشر الإيمان وإبادة الإلحاد ، وما مذابح اليهود والألبيجاويين وطبقات كثيرة من الملحدين ، وما ديوان التحقيق الدينى والحروب الدينية ، وجميع المعارك الوحشية التى سالت فيها الدماء فى أوروبا زمناً طويلاً ، إلا نتائج مشئومة نشأت عن التعصب الذى أوقد الصليبيون ناره .

* * *

المكتبات والخدمات المكتبية

في الفصل العاشر من « الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى » تناول « آدم ميتز » المكتبات والخدمة المكتبية فى المستوى الذى لا نظير له فى العالم حتى الآن فقال :

● فى مرو :

« وكان فى كل جامع كبير مكتبة لأنه كان من عادة العلماء أن يوقفوا كتبهم على الجوامع . ويقال : إن خزانة الكتب بمرو كانت تحوى كتب « يزدجرد » ، لأنه حملها إليها وتركها [١] .

وقد ترنم ياقوت بذكرى مكاتب مرو مع تأخر الزمن به ، وكان قد قضى بمرو ثلاث سنين فتغنى بأيامه فيها شعراً جميلاً . وكان بها على عهده إثنا عشرة خزانة ، بإحداها نحو من إثنى عشر ألف مجلد ، وكانت الخزائن سهلة التناول لا يفارق منزلى منها مائة مجلد وأكثر بغير رهن تكون قيمتها مائتى دينار ، فكنت أرتع فيها وأقتبس من فوائدها ، وأنسانى حبها كل بلد ، وألهانى عن الأهل والولد [٢] .

* *

● مكتبات الخلفاء :

وكان الملوك يفاخرون بجمع الكتب ، حتى كان لكل ملك من ملوك الإسلام الثلاثة الكبار - بمصر وقرطبة وبغداد - فى أواخر القرن الرابع ولع شديد بالكتب . فكان « الحكم » صاحب الأندلس يبعث رجالاً إلى جميع بلاد المشرق ليشتروا له الكتب عند أول ظهورها ، وكان فهرس مكتبته يتألف من أربع وأربعين كراسة ، كل منها عشرون ورقة ، ولم يكن بها سوى أسماء الكتب .

---

(١) كتاب بغداد ليطفور ص ١٥٧

(٢) معجم البلدان : ٤/٥٠٩ - ٥١٠ - الطبعة الأوردية .

أما فى مصر .. فكانت للخليفة العزيز (المتوفى عام ٣٨٦ هـ = ٩٩٦ م) خزانة كتب كبيرة ، وقد ذكر عنده كتاب « العين » للخليل بن أحمد . فأمر خُزَّان دفاتره فأخرجوا من خزائنه نيفاً وثلاثين نسخة . منها نسخة بخط الخليل ابن أحمد ، وحَمل إليه رجل نسخةً من « تاريخ الطبرى » اشتراها بمائة دينار ، فأمر العزيز الخُزَّان فأخرجوا ما ينيف عن عشرين نسخة من تاريخ الطبرى منها نسخة بخطه ، وذُكِر عنده كتاب « الجمهرة » لابن دريد ، فأخرج من الخزانة مائة نسخة منها .

وقد أراد المتأخرون أن يقدِّروا عدد ما كانت تشتمل عليه هذه الخزانة ، فيقول « المقريزى » : إنها كانت تشتمل على (. . ١٦) ألف كتاب [1] ، ويذكر عن ابن أبى واصل أنه كان بها ما يزيد على . . . ر. ١٢ مجلد . وقال ابن الطوير : إن خزانة الكتب كانت تحتوى على عدة رفوف . والرفوف مقطعة بحواجز ، وعلى كل حاجز باب مقفل بمفصلات وقفل ، وفيها من أصناف الكتب ما يزيد على مائتى ألف كتاب .

* *

● المكتبات فى الغرب وقتئذ :

ولنذكر ما كان فى بعض خزائن الكتب فى الغرب على سبيل المقارنة :

كان فى مكتبة الكاتدرائية بمدينة « كُنْستانز » فى القرن التاسع الميلادى ثلاثمائة وستة وخمسون كتاباً . وفى مكتبة « دير البندكتيين » (عام ١٠٣٢ م) ما يزيد على المائة بقليل ، وفى خزانة كتب الكاتدرائية فى مدينة بامبرج (سنة ١١٣٠ م) ٩٦ كتاباً فقط .

* *

● مكتبة عضد الدولة (المتوفى عام ٣٧٣ هـ = ٩٨٢ م) :

وقد أطلع رئيس الفراشين « المقدسى » على خزانة الكتب التى كانت فى دار عضد الدولة ، والمقدسى يصفها بأنها : « حجرة على حدة ، عليها وكيل وخازن

---

(١) لعله يعنى بالكتاب أىَّ كتاب ولو كان جزءاً من مجلد .

ومشرف من عدول البلد ، ولم يبق كتاب صُنِّف إلى وقت عضد الدولة من أنواع العلوم إلا وحصَّله فيها . وهى أزج طويل فى صفة كبيرة ، فيه خزائن من كل وجه ، وقد ألصق إلى جميع حيطان الأزج والخزائن بيوتاً طولها قامة فى عرض ثلاثة أذرع من الخشب المزوق ، عليها أبواب تنحدر من فوق ، والدفاتر منضدة على الرفرف ، لكل نوع بيوت وفهرستات فيها أسامى الكتب ، ولا يدخلها إلا كل وجيه » .

* *

● اهتمام قادة الفكر والسياسة بالقراءة والمكتبات :

وكان الفتح « بن خاقان » من رجال دار الخلافة يحضر لمجالسه المتوكل ، فإذا أراد المتوكل القيام لحاجة أخرج الفتح كتاباً من كمه أو خُفِّه وقرأه فى مجلس المتوكل حتى يعود .

قال ابن النّديم : وأما إسماعيل بن إسحاق فإنى ما دخلتُ عليه إلا رأيته ينظر فى كتاب أو يقلب كتباً ، أو ينفضها .

وفى سنة ٢٧٥ هـ (٨٨٨ م) توفى السجستانى المحدِّث ، وكان له كم واسع وكم ضيق ، فقيل له فى ذلك . فقال : الواسع للكتب والآخر لا أحتاج إليه .

وكان على بن يحيى المنجم ، ممن جالس الخلفاء حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى ، وقد أنشأ خزانة كتب عظيمة فى ضيعته وسماها « خزانة الحكمة » ، وكان يقصدها الناس من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم ، والكتب مبذولة لهم ، والصيانة مشتملة عليهم ، والنفقة فى ذلك من مال على ابن يحيى . فقدم أبو معشر المنجم من خراسان يريد الحج وهو إذ ذاك لا يحسن كبير شىء من النجوم ، فوصفت له الخزانة فمضى ورآها وهاله أمرها ، فأقام بها وأضرب عن الحج ، وتعلم فيها علم النجوم وأغرق فيه حتى ألحد ، وكان ذلك آخر عهده بالحج وبالدين والإسلام أيضاً [١] .

---

(١) الإرشاد - لياقوت : ٤٦٧/٥

وفى سنة ٢٧٢ هـ (٨٨٥ م) توفى أحد علماء أصفهان وكبار أصحاب الضياع فيها ، ويقال إنه أنفق فى شراء كتبه ثلاثمائة ألف درهم .

وفى سنة ٣٣٢ هـ (٩٢٤ م) توفى محمد بن نصر الحاجب ، وخلف كتباً بأكثر من ألفى دينار .

وفى سنة ٣٥٧ هـ (٩٦٧ م) صودر حبشى بن معز الدولة ، لأنه أراد عصيان أخيه أمير بغداد ، فكان من جملة ما أُخِذ منه خمسة عشرة ألف مجلد ، سوى الأجزاء وما ليس بمجلد .

وفى سنة ٣٥٥ هـ (٩٦٥ م) نهب قوم من الغزاة دار الوزير أبى الفضل ابن العميد بالرىَ ، فلما انصرف إلى داره لم يجد فيها ما يجلس عليه ، وكان ابن مسكويه المؤرخ فى ذلك الحين خازناً لكتب ابن العميد ، وهو يقص علينا القصة فيقول : « فأنفذ إليه أبو حمزة العلوى فرشاً وآلة ، واشتغل قلب الوزير ابن العميد بدفاتره ، ولم يكن شىء أعز عليه منها ، وكانت كثيرة فيها كل علم ، وكل نوع من أنواع الحِكَم والآداب ، يحمل على مائة وِقْر [1] ، فلما رآنى سألنى عليها . فقلت : هى بحالها لم تمسها يد ، فسُرِّى عنه ، وقال : أشهد أنك ميمون النقيبة . أما سائر الخزائن فيوجد منها عوض . وهذه الخزانة هى التى لا عوض منها ورأيته قد أسفر وجهه . وقال : باكر بها غداً إلى الموضع الفلانى . ففعلت ، وسلمت بأجمعها من بين جميع ماله » .

وقد استدعى السلطان فرج بن منصور السامانى الصاحب بن عباد (المتوفى عام ٣٨٤ هـ = ٩٩٤ م) ليوليه وزارته فكان مما اعتذر به أنه لا يستطيع حمل أمواله ، وأن عنده من كتب العلم خاصة ما يُحمل على أربعمائة جمل أو أكثر ، وكان فهرس كتبه يقع فى عشرة مجلدات .

وكان القاضى أبو المطرف (المتوفى عام ٤٠٢ هـ = ١٠١١ م) قاضى الجماعة بقرطبة ، وقد جمع من الكتب فى أنواع العلم ما لم يجمعه أحد من أهل

---

(١) الوِقْر : الحمل ، جمعه : أوقار .

عصره بالأندلس ، وكان له ستة ورّاقين ينسخون له دائماً ، وكان متى علم بكتاب حسن عند أحد من الناس طلبه ليشتريه منه ، وبالغ فى ثمنه ، وكان لا يعبر كتاباً من أصوله البتة . وإذا سأله أحد ذلك وألحف عليه أعطاه للناسخ فنسخه وقابله ودفعه إلى المستعير ، ويُحكى أن أهل قرطبة اجتمعوا لبيع كتبه عاماً كاملاً فى مسجده . واجتمع من ثمنها أربعون ألف دينار .

ولما أراد البرقانى العالم البغدادى (المتوفى عام ٤٢٥ هـ = ١٠٣٣ م) أن ينتقل احتاج إلى ستين من الأعدال [١] ، وإلى صندوقين ، ليحمل فيها كتبه عند انتقاله .

وقد دخل أبو يوسف القزوينى المعتزلى (المتوفى عام ٤٨٨ هـ = ١٠٩٥ م) بغداد ومعه عشرة جمال عليها كتب .

* *

● زخرفة الكتب :

قال « آدم ميتز » [٢] : « وقد أظهر المانوية من قبل عناية كبيرة بزخرفة كتبهم . ففى سنة ٣١١ هـ (٩٢٣ م) أحرقت على باب العامة ببغداد صورة مانى ، وأربعة أعدال من كتب الزنادقة فسقط منها ذهب وفضة مما كان على هذه الكتب . وكان له قدر .

وقد قلّد أصحاب الحلاج الذى قتل عام ٣٠٩ هـ (٩٢١ م) المانوية فى زخرفة الكتب ، فكانت كتبهم تكتب على ورق صينى ، وبعضها يكتب بماء الذهب ويبطن بالديباج والحرير ، ويجلد بالأدم [٣] الجيد .

وكانت الكتب التى يرسلها ملك الروم مزخرفة .

---

(١) العدِل : نصف الحمل .

(٢) الجزء الأول ص ٢٩١ ، ٢٩٢

(٣) الأدم : الجلد .

ففى سنة ٢٣٦ هـ (٩٣٧ م) وصل كتاب ملك الروم إلى الخليفة الراضى ببغداد وكانت الكتابة بالرومية بالذهب ، والترجمة بالعربية بالفضة ، وبعد ذلك ورد على الخليفة عبد الرحمن الناصر بقرطبة كتاب من صاحب قسطنطينية ، وكان فى ورق مصبوغ لوناً سماوياً مكتوباً بالذهب بالخط الإغريقى ، وكانت أشعار الخليفة المعتمد مكتوبة بالذهب ، ولما تولى قاضى القضاة عبد الجبار منصبه كانه الوزير ابن عباد (المتوفى عام ٣٨٦ هـ = ٩٩٦ م) هو الذى أنشأ له العهود وكتبه له بخطه ، واعتنى بزخرفته ويقال : إنه كان سبعمائة سطر ، كل سطر فى ورقة سمرقندى ، وله غلاف أبنوس يطبق كالأسطوانة الغليظة . وقد أهدى هذا العهد فى القرن الخامس الهجرى للوزير نظام الملك مع هدايا أخرى كان منها مصحف بخط أحد الكتّاب المجوِّدين بالخط الواضح ، وقد كتب كاتبه اختلاف القرآء بين سطوره بالحمرة ، وتفسير غريبه بالخضرة ، وإعرابه بالزرقة ، وكتب بالذهب علامات على الآيات التى تصلح للانتزاعات فى العهود والمكاتبات ، وآيات الوعد والوعيد ، وما يُكتب فى التعازى والتهانى .

وكان أكبر ما يعنى به عشاق الكتب ، الكتب التى كتبها كبار الخطاطين والتى لأصحابها فى النسخ أصل منسوب .

* * *

تطور المكتبات إلى مؤسسات علمية

قال « آدم ميتز » [١] : « على أنه قد ظهرت إلى جانب دور الكتب مؤسسات علمية أخرى تزيد على دور الكتب بالتعليم أو على الأقل بإجراء الأرزاق على مَن يلازمها .

فيُحكى عن أبى القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلى الفقيه الشافعى المتوفى عام ٣٢٣ هـ (٩٣٥ م) أنه أسس داراً للعلم فى بلده ، وجعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وقفاً على كل طالب للعلم ، لا يُمنع أحد من دخولها . وإذا جاءها غريب يطلب الأدب وكان معسراً أعطاه وَرَقاً وَورِقاً [٢] .

وكان ابن حمدان يجلس فيها ويجتمع إليه الناس فيملى عليهم من شعره وشعر غيره ، ثم يملى حكايات مستطابة ، وطَرفاً من الفقه وما يتعلق به .

وقد شيد القاضى ابن حيان (المتوفى عام ٣٥٤ هـ = ٩٦٥ م) فى مدينة نيسابور داراً للعلم ، وخزانة كتب ، ومساكن للغرباء الذين يطلبون العلم ، وأجرى لهم الأرزاق ، ولم تكن الكتب تُعَار خارج الخزانة .

وقد أنشأ أبو على بن سوَّار الكاتب أحد رجال حاشية عضد الدولة دار كتب فى مدينة رام هرمز على شاطىء بحر فارس .

كما بنى داراً أخرى بالبصرة . وجعل فيهما إجراءً على مَن قصدهما ولزم القراءة والنسخ فيها ، وكان فى الأولى منهما أبداً شيخ يُدْرِّس عليه علم الكلام على مذهب المعتزلة .

وفى سنة ٣٨٣ هـ أسس أبو نصر سابور بن أردشير - وزير بنى بويه - داراً للعلم فى الكرخ ، غربى بغداد ، ونقل إليها كتباً كثيرة اشتراها وجمعها .

---

(١) الجزء الأول ص ٢٩٢ - ٢٩٦ (٢) الورِق بكسر الراء : الفضة والمراد « النقود » .

وكان بها مائة نسخة من القرآن ، بأيدى أحسن النُسّاخ ، هذا إلى عشرة آلاف وأربعمائة مجلد أخرى ، معظمها بخط أصحابها ، أو من الكتب التى كان يملكها رجال مشهورون ، وردَّ النظرَ فى أمرها ومراعاتها والاحتياط عليها إلى رجلين من العلويين ، يعاونهما أحد القضاة ، وقد أحرقت هذه الدار عام ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) .

وكذلك اتخذ الشريف الرضى (المتوفى عام ٤٠٦ هـ = ١٠١٥ م) نقيب العلويين والشاعر المشهور داراً سماها « دار العلم » ، وفتحها لطلبة العلم ، وعيَّن لهم جميع ما يحتاجون إليه .

ويدل مجرد اسم هذه المؤسسات على الفرق بينها وبين دور الكتب القديمة ، فكانت دار الكتب قديماً تسمى « خزانة الحكمة » ، وهى خزانة كتب ليس غير . أما المؤسسات الجديدة فتسمى « دور العلم » وخزانة الكتب جزء منها .

وقد أنشئت فى مصر أيضاً مثل هذه الدور ، فقد اشترى العزيز بالله الخليفة الفاطمى فى سنة ٣٧٨ هـ (٩٨٨ م) داراً إلى جانب الجامع الأزهر ، وجعلها لخمس وثلاثين من العلماء . وكان هؤلاء يعقدون مجالسهم العلمية بالمسجد فى كل يوم جمعة بعد الصلاة حتى صلاة العصر . فالجامعة الأزهرية التى هى أكبر معهد علمى إسلامى اليوم نشأت فى القرن الرابع الهجرى .

وكان الوزير ابن كلّس يحب أهل العلم والأدب ويقربهم . وكان يجرى . بأمر العزيز بالله - ألف دينار فى كل شهر على جماعة من أهل العلم والورّاقين والمجلّدين . ذكر ذلك معاصرة وشريكه فى الوطن يحيى بن سعيد .

ثم جاء الخليفة الحاكم بأمر الله ففتح فى سنة ٣٩٥ هـ الدار الملقبة بدار العلم بالقاهرة ، وتسمى أيضاً دار الحكمة ، وحمل الكتب إليها من خزائن القصور المعمورة ، ودخل سائر الناس إليها يقرأون وينسخون ، وأقيم لها خُزّان وبوّابون ، ورتّب فيها قوم يُدرِّسون للناس العلوم ، وكان فى هذه الدار ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والمحابر والورق .

وقد وصلت إلينا ميزانية هذه الدار ، فكان ينفق عليها فى كل سنة ٢٥٧ ديناراً من العَيْن (الذهب) المغربى فمن ذلك :

٩٠ ديناراً للورق .

١٥ ديناراً للفراشين .

٤٨ ديناراً للخازن .

١٢ ديناراً للناظر فى الورق والحبر والأقلام .

١٢ ديناراً لمرمة الكتب .

١٢ ديناراً ثمن الماء .

١٠ دنانير ثمن الحصر العبدانى .

٥ دنانير ثمن لبود للفرش فى الشتاء .

٤ دنانير ثمن طنافس فى الشتاء .

دينار واحد لمرمة الستارة .

* * *

احتواء ثقافة اليونان

قال « دى لاس أوليرى » : لقد احتوت الثقافة الإسلامية كل العلوم اليونانية إذ انتقلت كل علوم اليونان إلى العرب عن وسائل ثلاث :

١ - الاختلاط المباشر بين اليونان والعرب وانكباب العرب على مصادرهم اليونانية درساً ونقداً .

٢ - طريق الهند حيث أسس الإسكندر مملكة بكتريا (بلخ) لتكون همزة وصل بين العالَمين الهندى والهيلينى .

٣ - إحدى المستعمرات اليونانية التى ظلت أجيالاً طويلة فى قلب المنطقة المسيحية .

ثم قال : « وقد لعب العرب دوراً أساسياً فى الرياضيات والفلك ، بل إنهم وضعوا الجبر وحساب المثلثات من الأساس ، واشتغلوا بالفلك بجدارة ، وأسهموا فى الطب وعلومه إلى الحد الذى جعل معلوماتهم الطبية تسود أوروبا . حتى تم اكتشاف « هارفى » للدورة الدموية » أ هـ .

أقول : « والحق أن الدورة الدموية كان « ابن سينا » قد كشفها قبل ذلك بستة قرون ، كما درسها بعمق كذلك « ابن النفيس » من علماء الإسلام .

* * *

الفصل الخامس

دين نهضة وأدب

- دين النهضة والأدب .
- الإسلام ضد الجمود .
- حركات التجديد الدينى .
- تأسيس حركة الإخوان عام ١٩١٠ بالسعودية .
- الإخوة السنوسية .
- نزعة الجهاد .
- الإخوان المندية .
- البابية والبهائية .
- فى نهضة الأدب الحديث بمصر والشام وفى الأندلس .
- الشعر والأدب والتأثير فى الأدب الأسبانى وغيره .
- العرب رواد الغرب فى كل فنون الأدب .

دين النهضة والأدب

عندما جاء الإسلام برسالة التوحيد فى وجه الوثنيات ، إنما يعنى التحرر من الإلف الخاطىء والعادات الذميمة الموروثة ، والانتقال من حال سيء إلى حال طيب ، ومن حياة البلاهة وعدم الاهتمام إلى حياة التفكير والاختيار والانتقاء .

﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ (١) .

وهكذا كل الرسالات جاءت لتنفض عن العقول البلادة والخمول والجمود الفكرى والتبعية المتخلفة : ﴿ وكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ (٢) .

ويعمل القرآن على قدح زناد الفكر البَشرى بنقاشه ثوابت الجاهلية ، فعندما يناقشهم بشأن تصوراتهم عن الملائكة يقول : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً ﴾ (٣) وهذا عرض الواقع المستقر فى فكرهم ، ثم يقول فى صيغة الاستفهام الإنكارى والتهكمى المبرز : ﴿ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ﴾ ؟ (٤) ، وبالطبع هم لم يشهدوا خلقهم ، فمنهم مَن يتخلى عن الباطل . ومنهم مَن لا يتخلى . وهنا يكون التهديد بما يستبقى السؤال فى ذهن السامع : ﴿ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ (٥) .

---

(١) الزخرف : ٢٢ (٢) الزخرف : ٢٣ (٣) الزخرف : ١٩
(٤) الزخرف : ١٩ (٥) الزخرف : ١٩

وهكذا فى كل القضايا الاعتقادية والخُلُقية والاقتصادية ، مما أوجد مفاهيم وحقائق وأحاسيس لها أدب يعبر عن وحيها ، فالأدب منطق للحقائق والطموحات ، ومن ثَمَّ قلنا : الإسلام دين نهضة لا جمود ، وفكر وأدب حى رائع . فماذا قال غيرنا فى هذا المضمار ؟

* *

● الإسلام ضد الجمود :

قالت الدكتورة « لورانا جليرى » : إن التأمل العقلى هو أساس الإسلام ، فقد رأينا أن الإسلام لا يستعمل المعجزات لكى يوقظ فى الناس الإيمان بإله واحد ، وإنما سبيله إلى ذلك الطاقة العادية للعقل البَشرى ، وفيما بعد قدَّم الإسلام معجزته الكبرى المعروفة بالقرآن ، لكى يدفع الناس إلى الإيمان بالأنبياء والوحى المقدس ، والقرآن فى حد ذاته كلام الله ، وعلم مفهوم ، ولا يتوقع الإسلام من الناس أن يقبلوا الإسلام إلا بثقة سلبية دون استخدام عقولهم ، بل يدعوهم إلى فهم القرآن وتأمله إلى الحد الذى يسمح به الذكاء البَشرى ، ويتحدى الناس أن يجدوا طريقاً لإنكاره أو أن يأتوا بما يوازيه .

وقد أفرد الإسلام للعقل أهمية كبرى لدرجة أن أغلبية المسلمين - وأنا أرجع هنا دائماً لآراء محمد عبده - عندما يتعارض حديث للرسول مع العقل والمنطق تنحاز إلى جانب العقل وتستبعد الحديث باعتباره مكذوباً . وهناك فى الواقع سبيلان لحل هذا الخلاف ، فإما الاعتراف بأن الطريقة التى روى بها الحديث غير مفهومة ، وإما أن يُفسَّر الحديث بما يتمشى مع العقل ، ولا يطلب الإسلام من المؤمنين ولا يتوقع منهم أن يقبلوا كل مجموعة الأحاديث رغم أن بعضها مشكوك فيه .

وإن ديناً أساسه التأمل العقلى وإعطاء مثل هذا المجال الفسيح للعقل ، ديناً يأمر باستخدام كل الطاقات التى منحها الله للإنسان ، وخاصة أعظمها شأناً وهو العقل : لا يمكن أن يكون مثل هذا الدين عقبة فى طريق العلم والفلسفة .

لقد قيل : إن المدنية الحديثة قد حققت كل هذا التقدم المزدهر فى أوروبا لأن المسيحية قد فصلت القوة المدنية عن القوة الدينية ، ولأن الدول الغربية متحررة من نفوذ الكنيسة الذى تمتعت به خلال قرون طويلة ، بينما لا يفصل الإسلام بين الدين والدولة ، فكلاهما جزء من كل حسب الشريعة .

والإسلام الآن دين ودولة بكل ما فى الكلمة من معنى . ففضلاً عن أنه قد أظهر الله للناس ، فقد أنشأ أيضاً حقوقاً وواجبات ، وأقر ضرورة تنفيذها بالسُلطة الزمنية ، وليس الخليفة لدى المسلمين زعيماً دينياً أو معصوماً من الخطأ . وهو لا يدّعى أن الله يوحى له بعلمه ، ولا يدّعى القدرة على شرح القرآن للمسلمين باعتباره واسطة بين الله والناس ، وعليه لكى يكون قادراً على تحقيق العدالة أن يلم بما يكفى من الشريعة للتمييز بين الحق والباطل ، ولكنه شأن باقى المسلمين فى فهمه للكتاب المقدس ، ولا طاعة له عليهم إلا طالما بقى فى الحدود السليمة ، فإن تخطاها حق لرعاياه تنبيهه إلى واجبه وتحذيره ، فإن سدر فى غيه كان لهم انتخاب خليفة جديد ، ويقول الرسول فى أحد أحاديثه الشهيرة : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » . ولذلك فالخليفة حاكم مدنى من جميع النواحى ، وليس حاكماً دينياً يتلقى سلطانه من الله ويطيعه رعاياه نتيجة لإيمانهم ، ففى الإسلام ليست هناك إلا قوة دينية واحدة - إن صح التعبير - هى القوة التى منحها الله لكل المسلمين من أحطهم إلى أعلاهم ، وهى حض المؤمنين على العمل الصالح ، واجتناب المنكر ، وليس للقاضى والمفتى وشيخ الإسلام إلا سلطات مدنية لا يستطيع أحدهم فرض سلطانه على عقيدة مسلم .

كيف يمكن القول بأن الإسلام قد عاق نمو الثقافة فى القرون الماضية عندما كانت محاكم ومدارس الإسلام منارات للهدى ، بينما كان الأوروبى عندئذ فى ظلام العصور الوسطى ، عندما وصلت أفكار الفلاسفة العرب إلى درجة أنارت الطريق للباحثين الغربيين ، وعندما طلب هارون الرشيد إنشاء مدرسة لدراسة مختلف العلوم تُلحق بكل مسجد . وعندما افتتحت المكتبات الغنية بمئات الألوف من الكتب للباحثين فى كل أنحاء العالَم الإسلامى ، ألم يكن العرب أول

مَن طبَّق التجربة قبل أن يعلن « باكون » عن ضرورتها بزمن طويل ؟ وتطوُّر الكيمياء والفلك ونشر العلم الإغريقي وتطوير دراسة الطب واكتشاف مختلف القوانين الطبيعية ؛ أليس ذلك دَيْناً للعرب على العالم ؟

إذا كان الأمر كذلك ، فلا يمكن القول أن من طبيعة الدين الإسلامى خلق العقبات فى طريق تقدم العلم ، فلنقل بدلاً من ذلك : إنه فى الوقت الذى اضطرت فيه سلطات الدولة إلى المحافظة على الإسلام فى بعض البلاد ، فقيدت مجرى التفكير الذى كان يمكن أن يكون خطراً على النظام العام وأن الصراعين السياسى والشخصى أحياناً - وليس الدين نفسه - هما اللذان حددا فى الماضى مواقف علماء الدين وواضعى القوانين ورواة الحديث والفلاسفة .

وينبغى على أى حال أن نعترف بأن بعض الأوساط الإسلامية تعترض اعتراضاً شديداً على العلوم العقلية والصناعة الحديثة ، فد ظل الأفغان والفُرس والهنود مقيَّدين بشدة بتقاليدهم القديمة ، وينتشر التعصب الشديد بين أهل المغرب ، وما زال هناك فقهاء مقيَّدون بحرفية النص الوارد فى بعض الكتب التى يعتبرونها أساسية ، لدرجة أنهم يرفضون إبداء الرأى فى أى مشكلة تثور ولا يوجد لها قرين فى هذه الكتب ، أو يحالون الاحتفاظ بالمشكلة معلقة إلى أن ينجحوا فى الاتفاق على رأى يقبله فقهاؤهم المفضلون . ولكن ليس من العدل اتهام روح الإسلام بالجمود وعدم الحركة ، لا لشىء ، إلا لمجرد وجود أوضاع محلية معينة في ظروف تاريخية خاصة كاليوم ، أو لوجود بعض جماعات تتصف بالجمود العقلى بين المسلمين .

ومن سوء حظ الدين الإسلامى أنه بعد أن كان كنزاً عربياً ، وبعد أن عرَّب العلوم الإغريقية ، سقط فى أيدى الأتراك والتتار والمغول الذين كانوا مجرد موظفين مأجورين لدى العرب ، جاءوا لجمع المال ثم استولوا على العالم الإسلامى ، وتبنوا دين المهزومين ، ولبسوا رداءه دون أن يفهموا روحه الداخلية ، ولهذا عجزوا عن التشرب بعبقرية الإسلام .

وترجع المسئولية على هؤلاء المتبربرون فى محاولة إخماد عقول رعاياهم ،

لدفعهم إلى فقدان الاهتمام بالعلم حتى يسلس حكمهم ، وينفرد هؤلاء المتبربرون بالسلطان وحرية تصريف شئون المجتمع الإسلامى ، مستغلين فى ذلك لفظة « القضاء والقدر » لمنع رعاياهم من التفكير ، ولتثبيت أنفسهم على أرض صلبة للدفاع عن فكرة أن أبواب المكارم الإلهية قد أغلقت فى وجه القادرين الجدد ، فكيف يمكن لذلك أن يتمشى مع تنديد القرآن بهذه الخطيئة بين تابعى الأديان الأخرى ؟

وبهذه الوسائل نُحّى المؤمنون عن الحكم ، وأُجبِروا على اتباع آراء أسلافهم : إن الذى زيّف الدين الإسلامى هم هؤلاء الدخلاء الذين اعتنقوه واتبعوا مظاهره الخارجية دون فهم روحه العميقة ، وهذا هو ما نحسبه تعليلاً « للجمود » فى أمة الإسلام الذى كانت له نتائجه الخطيرة لا على الدين وحده ولا على الشريعة والعُرف وحدهما ، وإنما على الفلسفة وسائر مظاهر الحياة الاجتماعية .

إننا لا نعتقد أنه من الضرورى أن نسوق شواهد أخرى على ما نقول ، فلحسن الحظ أن جمود [١] الإسلام مرض ، وقد بدأ فعلاً فى الشفاء .

إنه إلى الكتاب المقدس الذى لم يصبه تحريف أبداً لا فى أيدى أصدقائه ولا فى أيدى أعدائه ، سواء فى ذلك الجهلة منهم والمتعلمين ، ذلك الكتاب الذى لا يبلى ، بل يبقى كما أنزله الله على نبيه البدوى البسيط آخر الأنبياء والمرسلين ، إنه إلى ذلك النبع النقى سيعود المسلمون . فعندما ينهلون مباشرة من هذا الكتاب المقدس لن يفشلوا فى العودة إلى نشاطهم القديم ، والشواهد قوية على أن هذه العملية قد بدأت فعلاً .

قال « فازيلييف » [٢] : « أما اضمحلال الخلافة العباسية السياسى الذى بدأ منذ حكم المأمون ، والذى أدى إلى كثير من الاضطراب والحروب الداخلية ، فإنه فإنه لم يوقف ازدهار هذه الإمبراطورية الداخلى إيقافاً تاماً ولم ينل منه ، وأصبحت التجارة العربية فى القرن العاشر - مثلاً - تمتد من كورية إلى إسبانيا وتتغلغل فى قلب روسيا » .

* * *

(١) ليس فى الإسلام جمود ، وإنما فى بعض العقليات المريضة .   (٢) ص ٢٠ .

حركات التجديد الدينى

● الوهابيون :

قال « كارل بروكلمان » فى كتابه « تاريخ الشعوب الإسلامية » :

« ولقد شجب محمد بن عبد الوهاب (المتوفى عام ١٧٩٢ م) تقديس الرسول والأولياء على اختلاف صوره . وكان ذلك قد شاع بين المسلمين منذ قرون ، تقليداً للنصرانية وبعض الطقوس الدينية الأكثر بدائية ، رامياً بالشرك أولئك المسلمين الذين يشاركون فى هذا التقديس ، والذى يقضى القرآن بحربهم حتى يرجعوا عن غيِّهم أو يُبادوا .

وأخذ محمد – ابن عبد الوهاب – أتباعه بأداء صلاة الجمعة فى صرامة لا تعرف الرحمة ، ونهى عن كل زينة فى اللباس ، وعن لبس الحرير بخاصة ، وحرَّم أيما تزيين أو زخرفة للمساجد والأضرحة . ليس هذا فحسب ، بل لقد توسَّع فى فهم التحريم الإسلامى لمختلف ضروب المسكر ، فحرَّم تدخين التبغ الذى أعلن جميع الفقهاء تقريباً – من الحنابلة وغير الحنابلة – معارضتهم له أول دخوله إلى بلاد المشرق » (١) .

وقال « شمتز » : « وقد وجد محمد بن عبد الوهاب المطرود من وطنه « عُيينْة » ملجأً له فى « درعية » حيث كان يحكم الشيخ محمد بن سعود ، الذى أعجبته تعاليم ابن عبد الوهاب فاعتنقها .

وأصبح لجنود ابن سعود قوة لا تُطاق ولا تنثنى بسبب العقيدة الروحية التى بثها فيهم ابن عبد الوهاب .. وظهر فى كل مكان « مطهرو الإسلام » كما كانوا يسمون أنفسهم ، فهزموا القبائل ونظفوا المساجد من كل الصور والآيات الزخرفية ، وجردوا العبادات الدينية من الشوائب التى دخلت فيها فى عصور التخلف .

---

(١) الجزء الرابع ص ١٩

« فى عام ١٨٠١ غزا الوهابيون كربلاء - كعبة الشيعيين وأزالوا الأضرحة المقدسة ، وفى عام ١٨٠٤ كانت مدن النبى (ﷺ) - مكة والمدينة - فى قبضة أيديهم . ولم يمض عامان حتى كان جنوب الجزيرة العربية بعمانه ورعنه فى قبضة أيديهم ، ثم امتدت انتصاراتهم شمالاً حتى وصلت « مملكة النبى الثانية » فى عام ١٨٠٨ جبال لبنان ، وبلغت سيطرتها شاطىء البحر الأحمر وشاطىء المحيط الهندى .

« ودفعت الانتصارات محمد بن سعود أن يضع نفسه موضع الخليفة فى القسطنطينية فعجَّل ذلك بنهايته . إذ كلَّف السلطان واليه فى مصر - محمد على - أن يقوم بحملة ضد الوهابيين امتدت ثمانية أعوام قوَّض فيها مملكتهم ، وطردهم من مكة والمدينة وأعدم زعماءهم أمام الحاجة « صوفيا » فى القسطنطينية .

« واختار ابن سعود - فى عام ١٨٣٠ - الرياض عاصمة له ، ولكن سرعان ما ضاعت السُلطة السعودية وانهارت هذه الدولة الصغيرة أيضاً بسبب هجوم القبائل المجاورة عليها .

« وفى عام ١٩٠١ قام عبد العزيز بن سعود - حفيد محمد بن سعود الكبير - بمغامرة أعاد بها سُلطة السعوديين فى الرياض . وقضى على دولة الشمريين التى كان يتزعمها ابن رشيد وانتقلت له السيادة عليها » .

* *

• تأسيس حركة الإخوان :

قال « باول شمتز » : « فى عام ١٩١٠ أسس ابن سعود حركة الإخوان التى حاول بها أن يدفع من طريقه القبائل العربية التى تعترض بناء دولة كبرى مركزية ، فأحيت هذه الحركة شعور الانتماء الدينى . وتوطنت فى أجزاء متعددة من المملكة السعودية . وأصبحت مستعمراتها فقط حماية للدعاة ، وهيأت لهم إمكانية الإقامة الدائمة حيث جرى توعيتهم بطريقة منظمة وشاملة للقضاء على

أفكارهم القَبَلية ، وغرس الشعور بالوحدة العربية فيهم على أساس دينى يتخذ هدفه عودة الدولة الإسلامية الأولى .

« إن التطور التاريخى لا يسير فى خط مستقيم ، بل ينحنى ويعاود السير فى درب سبق له سلوكه ، وهذا ما يُعبِّر عنه بأن التاريخ يعيد نفسه - أى أن أحداثاً سابقة تعود إلى الظهور متشحة نفس الثوب الذى ميَّزها عن غيرها فى العصور السالفة - نجد ذلك واضحاً فى حركة الوهابيين - فقد عادت معها مميزات من عصر النبى (ﷺ) حين نجح الإسلام فى أن يخضع الشعور القَبَلى العربى إلى السير فى إطار الجماعة ، ويوجه إرادتهم القتالية إلى الذين عادَوا الإسلام .

« أراد الوهابيون إعادة الأفكار - سواء أكان ذلك من وجهة النظر الدينية أو السياسية أو الاجتماعية - التى بنت الدولة الإسلامية فى عصر النبى (ﷺ) ، وأعطتها قوة الكفاح ، حيث حققت مركزاً عالمياً تطامنت دونه كل القوى المعاصرة .

« وعليه فلم تكن حركة الإخوان موجهة ضد المعاصرين من غير المسلمين ، بل محاولة للنهوض بالأمة العربية التى تفككت أوصالها ، فهوت إلى الحضيض .

« وقد كشفت الثلاثون سنة الأولى من قرننا الحالى عن مدى رسوخ ودوام هذه القواعد ، وعن مدى نوع القوى الدافعة لفكرة تتخذ الدين أساساً لها . فقد انتزع مؤسس حركة الإخوان - معتمداً على قوة المجاهدين فى سبيل العقيدة - السُلطة فى الجزيرة العربية ، وواجه الإرادة التركية والإنجليزية . ثم واصل التوسع - متجنباً المواجهة المباشرة مع الاستعمار الغربى حتى وصلت مملكة الوهابيين الجديدة شاطىء البحر الأحمر ، والحدود الفلسطينية ، وبلاد ما وراء النهرين ، ولأول مرة - منذ العصر الإسلامى الأول - يتحقق حكم الوحدة العربية نابعاً من قوتها الذاتية ، ويصل إلى هذا النجاح رغم إرادة البلاد الغربية » .

* *

« لم تنطو الحركة الوهابية على نفسها داخل الجزيرة ، بل امتد تأثيرها فى شرق العالم الإسلامى وغربه ، وتكونت جماعات وهيئات تنادى بتطبيق مبادىء الإسلام فى المجتمع .

« فأسس الشيخ « عثمان بن دانفوديو » بالسودان حركة ، وفى عام ١٨٠٤ سقطت مملكة جوبير - دولة هوسا على نهر النيجر - وتأسست مملكة وهابية جديدة فى إفريقيا تقوم على أساس دينى . وكانت « سوكوتو » الواقعة قرب النيجر عاصمتها ، وساعدت قوة سلطانها وتماسكها الداخلى على انتشار الإسلام فى مناطق السودان العربية ، ويحمل خليفة عثمان دانفوديو - لقب ملك المسلمين .

« وانتشرت التعاليم الوهابية منذ عام ١٨٢٠ فى المناطق الإسلامية الواقعة على خليج بنجابى ، وأقاموا مملكة فى بنجاب وأعلنوها حرباً ضد السيخ (Sikhs) الذين أرادوا أن يكوِّنوا من المسلمين والهندوس وحدة دينية ، ثم سقطت مملكة الوهابيين أمام الغزو البريطانى فى ثلاثينات القرن الماضى .

« وقد بقيت الوهابية فى الهند تدعو إليها طوائف أشهرها (Farazis) .

« كما أخذت طريقها شرقاً فانتشرت فى سومطرة منذ عام ١٨٠٣ مما اضطر رجال السُلطة فى المستعمرات الهولندية أن يتدخلوا فى عام ١٨٢١ مع الوهابيين فى حرب . ولم يستطع الهولنديون كسر شوكة الوهابيين قبل ١٦ عاماً من القتال فوق أرض سومطرة »[1] .

* * *

● الإخوة السنوسية :

« رجع محمد على السنوسى من مكة عام ١٨٤٠ إلى وطنه الجزائر ، فى الوقت الذى كانت تحاول فيه فرنسا تثبيت أقدامها هناك لتحقيق أول رغبة استعمارية ، فأسس أول زاوية تطورت فيما بعد إلى مركز للمقاومة ضد الاستعمار الفرنسى فى الجزائر .

---

(١) باول شمتز : الإسلام قوة الغد العالمية ص ١١٩ وما بعدها ، نشر مكتبة وهبة بالقاهرة سنة ١٩٨٣

« وفى النصف الأول من أربعينات القرن التاسع عشر طاف محمد على السنوسى فى شمال إفريقيا . ثم عاد إلى مكة . فقام نزاع بينه وبين الحاكم الجديد فى مكة ، أدى إلى طرده فى عام ١٨٤٤ وعاد إلى طرابلس ، وهناك قام نزاع بينه وبين البقية التركية ، فرحل إلى قلب الصحراء واستوطن واحة « جغبوب » خارج حدود السلطة التركية ، وفى هذه الواحة أسس الطائفة السنوسية ، وكوّن لها تنظيماً حربياً له طابع الوهابية .

« ثم انتشر الدعاة فى شمال إفريقيا ، وأسسوا مراكز أسهمت فى المجال الاقتصادى إسهاماً بالغاً ، ودفعت عجلة الإصلاح بإرادة قوية ، وأنجزت مشروعات ناجحة ، فقدمت للسكان المجاورين عملاً نموذجياً خاصاً بزراعة الأرض لتنمية اقتصاديات الواحة . وأينما وليّتَ وجهك فى شمال إفريقيا رأيتَ أعداداً لا حصر لها من السنوسيين الذين يعيشون متفرقين فى البلاد ، عمالاً يدويين ، وأصحاب حرف ، أتقنوا عملهم فصاروا قدوة لغيرهم من المسلمين .

« وأرسل الإخوان السنوسيون دعاتهم خارج شمال إفريقيا ، فساحوا فى البلاد الإسلامية حتى وصلوا الجزيرة العربية وشبه جزيرة الملايو . وفى كل مكان ينزلون فيه تقوم نقطة مركزية للمقاومة ضد المستعمرين الغربيين ومعارضة النفوذ الأجنبى ، الذى يندفع تياره باستمرار فى المناطق الإسلامية .

« ونال المبشرون السنوسيون نجاحاً كبيراً فى السودان ، إذ انتشرت تعاليمهم حتى وصلت شاطىء بحيرة تشاد ، واتسمت تنظيماتهم بالإحكام المتقن ، فلها رتب مسلسلة كما هى فى سلطة الكهنوت المتسقة ويأتمر أعضاء الزاوية بإمرة أحد الدعاة ، الذى بلغ مرتبة الرئاسة ، بعد أن اجتاز الطريق التدريجى إليها ، ويُطلق عليه لقب « المقدم » .

« تفادى السنوسيون سلطان قسطنطينية ، فلم يوجهوا مبشريهم إلى طرابلس حيث يعتبر السلطان نفسه الحاكم عليها ، وكان أحسن حقل نبتت فيه دعوتهم تلك المناطق الجنوبية ، وبعد أن كبرت الطائفة نقلوا مركز الرياسة من جغبوب إلى واحة الكفرة » [١] .

* * *

---

(١) المرجع السابق ص ١٢٦ وما بعدها .

● نزعة الجهاد :

قال « باول شمتز » [1] : « عندما غزت إنجلترا السودان بقيادة « كتشنر » لاقت مقاومة عنيفة من المهدى فى السودان ، وقدم السنوسيون للمهدى مساعدات كبيرة ، وعضدوه ضد الغزو الأجنبى .

« وعندما هاجمت إيطاليا طرابلس عام ١٩١١ وجدوا أن هذا الهجوم موجه ضدهم كما هو موجه ضد الباب العالى ، فانتصر الشعور بوحدة المصير ، وعقد السنوسيون ، معاهدة تحالف مع « أنور بك (Anwar bey) » (مندوب الباب العالى فى ليبيا) وأقسم أعضاء « الإخوان السنوسيين » على الكفاح ضد المسيحية الغربية .

« وظلت هذه المقاومة تقلق الإيطاليين وتسبب لهم متاعب حتى بعد أن عُقد الاتفاق بين روما والباب العالى بمدة طويلة ، واعتبروا أنفسهم - بعد أن تنازَل السلطان عن حقه - أصحاب حق السيادة فى منطقة طرابلس وفى سيرانايكا .

« وإزاء موقف الباب العالى تباطأ السنوسيون عند اندلاع الحرب العالَمية الأولى فى إعلان الدخول فيها بجانب القسطنطينية ضد إنجلترا ، على أمل أن تعترف إنجلترا بالاستقلال الذاتى لليبيا . وفى عام ١٩١٦ اتفقت إنجلترا مع الليبيين على خطوط الحدود التى تطابق تقريباً الحدود الحالية بين مصر وليبيا » .

* *

● الإخوان المندية :

ثم قال « شمتز » : « تكررت تعاليم السنوسية عند حركة « الإخوان الدركوية » التى تفرعت منها « المندية » واتخذت هذه الطائفة « مصراته » مركزاً رئيسياً لها ، غير أنهم خالفوا السنوسيين بتأييدهم الدعوة إلى الوحدة الإسلامية التى نادى بها السلطان عبد الحميد ، فقد كان شيخهم الكبير مستشاراً سياسياً مقرباً للباب العالى مدة طويلة . أما اليوم فقد ضعفت هذه الطائفة ولم يعد لهم ذكر » [2] .

* *

---

(١) الإسلام قوة الغد العالمية ص ١٢٨ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ص ١٣٠ .

● تجديد الشيعة :

ثم قال « شمتز » : « ظهر بين الشيعة أيضاً مذاهب مماثلة حملت لواء حركة الإصلاح الديني في المجتمع الشيعي فدعت إلى العودة بالدين إلى صفائه الأول .

فقد دعا الشيخ أحمد العاصي - الذي توفي في عام ١٨٢٦ - إلى أن الإمام الثاني عشر (محمد المنتصر) الذي ينتظر عودته ، يجب أن يتصل بشعبه أثناء فترة الانتظار عن طريق زعيم روحي مفكر ، فعاد التصور الذي مضى عليه قرون إلى الظهور مرة أخرى [١] .

واعتقد الشعب أن هذا الشيخ وتلميذيه بعد موته ، هم رسل الإمام الثاني عشر الغائب : ملأهم بروحه ، وأمدهم بفكره ، ولكن لم يسم أحد الثلاثة نفسه باباً ، بل لم يذكر أحد منهم أنه شعر بالإمام شعوراً مباشراً » .

* *

● البابية والبهائية :

قال « باول شمتز » : « في عام ١٨٤٤ م (١٢٦٠ هـ) بالضبط بعد ألف عام من موت آخر باب ، ادعى ميرزا على محمد أن عودة الإمام منتظرة ، فهو يمهد له الطريق ، ولقب نفسه بالباب « باب الله » - بالضبط كما تلقب الوسطاء السابقون - وصدّق الشعب قوله ، وانطلقت حركة في إيران سمت نفسها بـ « البابية » ، وهي تشبه حركة قامت في الغرب قبل . . . ١ ، عام تهيئ نفسها لاستقبال المسيح الذي سيعود قريباً .

« وربط الباب تعاليم الدين - بطريقة ملتوية - باتجاهات الحضارة الغربية فرفض مشروعية الجهاد ، وعارض الحدود التي شرعها الإسلام ، وحرّم الختان (الطهارة) ، ومنع المرأة من لبس الحجاب ، ودعا إلى تحريم تعدد الزوجات ،

(١) كان الباب حلقة الاتصال بين الإمام المختفي وبين الشعب وآخر باب مات سنة ١٩٤ .

وطالب بإنشاء مدارس ، وحمل لواء الدعوة إلى تحقيق كثير من المطالب الثورية غير ما ذكر.

ألقى القبض على « الباب » فى أوائل عام ١٨٥ ، وظل فى السجن بضعة أشهر ثم نفذ فيه الإعدام مع أحد تلاميذه المخلصين فى ٨ يوليو من هذه السنة .

عين الباب خليفته قبل أن يُعدم ، فواصل هذا الخليفة - ميرزا يحيى - السير بالأتباع على الطريقة التى سار فيها سلفه . واقتفى رجال الشرطة أثره ، ولكنه استطاع أن يهرب إلى بغداد هو وأخوه غير الشقيق - بهاء الله - وجمع من أتباعه .

مارس نشاطه من بغداد .. عن طريق الإيرانيين الذين يمرون على بغداد فى طريقهم إلى أماكنهم المقدسة فى النجف جنوب بغداد .

فكان « ميرزا » يلتقى بهم فى بغداد ، وينشر دعوته بينهم ، فقويت الرابطة بينه وبين أتباعه فى إيران .

أقلق هذا الأمر الشاه « ناصر الدين » . فبعث رسولاً يشرح مخاوفه لدى الباب العالى الذى أبدى تفهماً واستعداداً لتفنيذ رغبات الشاه ، فاستدعى ميرزا يحيى إلى القسطنطينية ، ومن هناك أرسل إلى « أدريانوبيل » فى الطرف الغربى من المملكة التركية .

حدث انقسام فى هذا المنفى بين البابيين ، فقد أعلن « بهاء الله » أن روح الإمام الثانى عشر حلّت فى جسمه ، فهو الإمام نفسه ، وصدّقه الناس فاتبعوه ، ووقعت بينهم وبين أتباع أخيه مشاحنات ، واضطر رجال السلطة التركية للتدخل فأرسلت ميرزا يحيى (الباب) الذى سمى نفسه « صبح أزل » يعنى « الفجر الخالد » هو وأتباعه إلى « قبرص » بينما رحل بهاء الله (الإمام العائد) مع أتباعه إلى فلسطين ، فاتخذ مدينة أكون « عكا Akkon » منفى له .

ومات « ميرزا يحيى » صغير السن ، وتفرّق أتباعه أمام قوة « بهاء الله » ،

فظل فى عكا نحو ٣٠ عاماً . وفى عام ١٨٧٠ انتقل إلى ضَيْعة له فى ضواحى المدينة ، ومات فى عام ١٨٩٢ فدفن فى مقبرة هناك تحوطها حديقة فيحاء .

انقسم أتباع « بهاء الله » - نحو مليون - بعد موته إثر التنازع الذى قام بين ولديه على الزعامة . وامتاز ولده الأكبر « عبد البهاء » باعتناقه مبادىء تحمل فى طياتها توسيع دائرة الإسلام . فدعا إلى اعتبار الكتاب المقدس مصدر توجيه بجانب القرآن ، وأسس طائفة تدعو إلى التسامح بين الأديان الثلاثة ، ووجدت لها أتباعاً فى أوروبا وشمال أمريكا ، وأقيمت لها مراكز للطائفة فى فرنسا وإنجلترا وألمانيا » [١] .

* *

● الإخوان المسلمون والبهائية :

كان بروزهم - مع النهضة التنصيرية ، ولما كان القنال أهم أوكار التنصير ، كان معه تضليل البهائية ، وكان الإخوان يجابهون التنصير والبهائية إلى جانب النفعيين والضالين بجهلهم من الطرق الصوفية .

وحين مات زعيمهم بالإسماعيلية منع الإخوان دفنه فى مقابر المسلمين ، كما منع النصارى ذلك . وحاولت السلطات دفنه ليلاً فصنع الإخوان كردوناً حول مقبرة المسلمين ، مما اضطر الحكومة إلى دفنه فى صحراء البلاح .

وفى زيادة سياحية لى عام ١٩٤٩ وكنت مطارداً من الشرطة لاعتقالى مع الإخوان زرت البلاح . ووجدت مكتوباً على باب مدفن هذا البهائى كلمة : « يا إلهى بهاء » فاستقر فى نفسى حقيقة كفرهم .

وبعد الإفراج عنى بعد محاكمة محكمة الشعب سنة ١٩٥٦ ، كان البهائيون فى غيبة الإخوان وراء القضبان قد نشطوا .. وفى جلسات طويلة كان حوارى

---

(١) المرجع السابق ص ١٣١ وما بعدها .

معهم ، وهم يعتمدون على نصوص القرآن والسُنَّة ينحرفون بتفسيرها عما عليه كافة المسلمين ليضللوا الشباب إلى جانب إغراء المحتاجين بسد حاجاتهم ، وتزويج الراغب فى الزواج بلا متاعب . وكنت فى هذا مصاحباً فضيلة الشيخ على راغب - من جيرانى - المدرس بالأزهر ، ولكن : ﴿ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً ﴾ (١) .

ولعل هذا يثير سؤالاً عن سر ارتباط البهائية بالاحتلال البريطانى ؟

والجواب هو أن الميرزا على محمد الشيرازى (١٢٣٥ - ١٢٦٦ هـ) وهو إيرانى شيعى الأصل ، والذي أعلن أنه الباب للمهدى المنتظر كان مثلاً فى الجراءة الوقحة ، إذ فضّل نفسه على النبى ﷺ ، ولا غرو ، فعند الشيعة أن الولى قد يصل إلى درجة لا يبلغها نبى مرسل ولا مَلَك مقرَّب - كما ذكر ذلك « الخومينى » فى رسالته « الحكومة الإسلامية » . بل وبالغ - الميرزا - فقال : إن الإسلام نسخه كتاب « البيان » ، وأنكر القيامة ، ودعا إلى إباحية النساء كالعلمانيين فى الغرب .

ولما حاكمه علماء الشيعة حكموا عليه بالإعدام فخلفه البهاء حسين على المازندرانى (١٢٣٣ - ١٣٠٩ هـ) الذى تنسب إليه البهائية وادعى الألوهية ، وأن ديانته نسخت كل دين ، ومن أبرز ما أحبه فيه الإنجليز :

١ - تحريم الجهاد وقبول طاعة الإنجليز .

٢ - رفض اللغة العربية والبحث عن لغة جديدة .

٣ - موافقة اليهود والنصارى على القول بصلب المسيح ، القول الذى أنكره بابا روما فى أوائل الثمانينات ، وزعموا أن التوراة لم تُحرَّف وكذا الإنجيل .

٤ - إقرار الربا ومبدأ اختلاط الجنسين .

ومعقل البهائية اليوم فى إسرائيل . كما لهم مراكز ضخمة فى الولايات المتحدة الأمريكية .

* * *

---

(١) الكهف : ١٧

نهضة الأدب الحديث

● فى مصر والشام :

قال « كارل بروكلمان » فى « تاريخ الشعوب الإسلامية » [(١)] :

« وإنما يتمثل الأدب العربى فى سورية فى ظل « عبد الحميد » بيوسف ابن إسماعيل النبهانى رئيس محكمة الحقوق فى بيروت حتي عام ١٩٢٦ الذى كان صديقاً « لأبى الهدى » إمام السلطان ، الذى تكشف عن نشاط أدبى خصب جداً . صادر عن روح الإسلام القديم ، ابتغاء وقايته من تيارات أوروبا المسيحية .

وفى مصر حمل المسلمون لواء الأدب العربى وحدهم ، بادىء الأمر ، بينما لم يبرز الأقباط إلى هذا الميدان إلا فى ظل الأحداث السياسية الجديدة التى مرت بمصر بعد الحرب العالمية الأولى .

أما فى عالم الشعر فقد طغت النزعة إلى تقليد أمراء الشعر الكلاسيكى فى العصر العباسى عند وزير الحرب « محمود سامى البارودى » الذى نفاه الإنكليز عقب الثورة العرابية إلى سيلان ليعود إلى وطنه وهو شيخ كبير ، ولقد وفق فى منفاه إلى أن يصوِّر ما كان يعتوره من حزن وضيق تصويراً مبدعاً مؤثراً .

وفى ميدان النثر القصصى سادت روايات الأديب السورى « جورجى زيدان » الدائرة على محور التاريخ الإسلامى ، هذه الروايات التى لم تكن أبداً عميقة ، ولكنها استطاعت أن تستحوذ على القراء بأسلوبها السهل ، وتصويرها الرافل بالخيال .

وفى ميدان الصحافة التى نمت فى مصر نمواً كبيراً نشأ أسلوب نثرى جديد

---

(١) الجزء الرابع ص ١٠٠ - ١٠٢

اصطنعه السياسيون الذين ظهروا فى ظل الحكم البريطانى وسيلة من وسائل الدعاية لهم . ومن هؤلاء السياسيين الذين تجب الإشارة إليهم هنا قاسم أمين (المتوفى عام ١٩.٨) .

* *

● وفى الأندلس :

قال المستشرق « ميليو جيرسيه چونس Emilio Garcia Gonez » فى كتابه « الشعر الأندلسى » [١] متحدثاً عن الأدب في عصر ملوك الطوائف ما يأتى :

« كانت دويلات الطوائف أشبه بجمهوريات إيطالية فى ثياب شرقية ، وكان هذا الزمان عصراً عظيماً للشعر والشعراء ، إذ تنافس ملوك الطوائف فى اجتذاب الشعراء إلى نواحيهم » .

ثم قال : « وأكثر ما انصرفت إليه الملكات هو قرض الشعر على طريقة القدماء ، ولدينا من ثمار قرائحهم آلاف الأبيات ، لقد أصبح أهل الأندلس كلهم شعراء حتى قال « القزوينى » : إن أى فلاح يحرث بأثوار فى شلب يرتجل ما شئت من الأشعار فيما شئت من المعانى » [٢] .

* * *

(١) الجزء الأول ص ١٨

(٢) تاريخ العرب فى أسبانيا - لخالد الصوفى - ص١٢٥ - المطبعة التعاونية .

الشعر والأدب

قال « فرانسيسكو ڤيلاسباسا » من شعراء الإسبان فى عصر الإسلام بالأندلس :

لم يصب شعب من موهبة الشعر الإلهية بقدر ما أصاب الشعب العربى منها ، فكان من ولوعه بالشعر ، ومن ثقافته التواقة إلى الحرية والبطولة ، ما وسم شعره بطابع خاص كان شعاره منذ ظهوره ، وما انتصار الإسلام الباهر إلا انتصار للشعر العربى أيضاً .

وسيطر العرب - إبَّان انتصاراتهم - على أرقى شعوب الأرض ، وامتزجوا بهم ، فأخذ عنهم المصريون والبيزنطيون والرومانيون أصولاً جديدة ، بدأت منذ ذلك الحين تسود خشونة شعرهم القديم . ولم يتعدَّ هذا التأثير الخلابة فى التركيب ، والتلاعب بالألفاظ ، وظلت القصائد العربية القديمة سليمة لم يطرأ عليها فساد القلوب ، ولا تصرَّفت بها الألسن على هوى الرواة ، فكانت كالإرث الثمين يتناقلها الناس جيلاً بعد جيل . وظل بدو الصحراء ، رعاة النجوم . أوفى الشعوب خبرة فى تخيُّر الأخيلة ، وأوفرها مادة شعرية .

ولم تتهيأ للشعر العربى فى عامة الأقطار التى اكتسحها العرب تربة أصلح من تربة الأندلس ، ولا زها فى بلد من البلدان زهوه فى هذا البلد .

قال : وكان قوّاد العرب أولاً ، ومن بعدهم الخلفاء والأمراء ، مثالاً للشعب فى بث الفكرة الأدبية فى الأندلس العربية تكاد لا تستثنى منهم واحداً .. منذ أنشأ « عبد الرحمن الأول » تحيته الوطنية الممتعة التى خاطب بها « النخلة الأولى » التى غرسها بيده على ضفة النهر الكبير ، إلى أن أنشد أبو عبد الله موشحته [١] المشجية ، واصفاً قوافيها بفلذات قلبه المنفطر

---

(١) الموشحة : قصيدة أندلسية لها قالب شعرى خاص .

الدامى حزناً على « مريم » ، وقصيدة المعتمد آخر ملوك أشبيلية فى رثاء البلدان والأمم .

ونسج الأشراف على منوال سلاطينهم ، فنمت رياض الأدب الغنائى [١] ، وأزهرت فى ظلال السيوف ، فتفشت عدوى الاشتغال بالأدب العربى بين أساقفة النصارى ، وقد استعربوا فى ذلك العهد ، فراحوا يقرضون الشعر بلغة عربية عالية . وهو لعمرى حَدَثٌ وحيد من نوعه في التاريخ ، وفاضت أرض الأندلس المرعة بعلوم الإسلام وآدابه التى عمّت العالم . وقامت النفوس التواقة إلى العرفان فى أقاصى البلدان ، تبرد شفاهها الظمأى ، بترشف ينابيع الحب والسلام المتفجرة من الشعر العربى فى قرطبة وطليطلة أولاً ، وإشبيلية وغرناطة آخراً . ونظم « سلفستر الثانى » بابا رومية قصائد عربية لها أوزانها وقوافيها .

« وظلت اللغة العربية لغة التقاليد فى الحب والعلم والشعر ، فى كل من صقلية ، وبروفنسا ، وإيطاليا ، وبيزنطة ، بل فى قلب بلاد ألمانيا ، ورافق الشعر جيوش العرب الفاتحين وسفنهم الظافرة ، وواكبت قوافيه قادتهم ، فكانوا يولجونها فى الصدور على سنان الحراب ، ناشطين لإذاعتها نشاطهم لإذاعة سور القرآن الكريم » [٢] .

ولم يكن جل الأناشيد القديمة وأغانى الشعراء الجوالين غير قصائد عربية لشعراء الأندلس ، أدخل عليها بعض التطور ، وبقيت محتفظة بأثر الروح الشرقى .

---

(١) يراد بالأدب الغنائى والشعر الغنائى ما عدا الشعر المسرحى والملاحم كالإلياذة والأوديسا ، فكل قصائد المدح والحماسة والوصف غنائية .

(٢) ليس التشبيه تاماً .. بنفس المقدار المتساوى فى الحرص على إذاعة القرآن والشعر .. فالكاتب شاعر حتى فى كتابته التاريخية .

وبالعربية نظم الإمبراطور « فردريك الثانى » ملك صقلية مقاطع ممتعة ، وجمع فى بلاطه رهطاً من علماء الإسلام وشعرائه ليتخذهم ذريعة يبعث بها فى ملكه ما كان للأدب العربى من بهاء فى دمشق وبغداد وقرطبة وإشبيلية ، وهى المدائن الأربع التى كانت فى ذلك العهد قِبْلة أنظار النهضة الأدبية فى العالَم أجمع .

وقد اتضح للباحثين من المعاصرين أن في شعر « دانتى » الذى هو فخر الأمة بأسرها . مآخذ صريحة مردودة إلى الأدب العربى .

* * *

● الرومانطيقية والإيقاع والخيال :

يقول « فرانسيسكو ڤيلاسباسا » : إن روح الفروسية التى سادت القرون الوسطى . وأحالت همجية الحروب إلى مداعبات على ظهور الخيل فى ميادين الألعاب ، وأنتجت من الحب أدباً عالياً ، ومن المرأة صنماً معبوداً ، لهى روح أبدعها الشعر العربى [1] ، وحملها إلى العالَم على أجنحة موشحاته ، فعمَّ العالم « الأدب المنمَّق » الذى سبق « الرومانطيقية Romantique » ببضعة أجيال [2] .

ولئن كان للشعر العربى هذا التأثير فى العالَم . فأحْرِ به أن يكون فى إسبانيا أشد بلوغاً منه فى غيرها ، كيف لا ، وقد عاش العرب سادة فيها مدة ثمانية قرون شادوا فى خلالها أفخم صروحهم الهندسية ، والعلمية والأدبية .

لا جَرَم أن ملوك الكثلكة الظافرين أجْلَوا العرب منذ قرون عن شبه الجزيرة

---

(١) حقاً للشعر الجاهلى كما للمنحلِّين الزنادقة كأبى نواس وبشار بن برد نصيب كبير فى هذا التأثير على مَن كان على شاكلتهم من الشعراء .

(٢) ظهرت الرومانطيقية فى القرن التاسع عشر تدعو إلى صدق التعبير دون قيد لقواعد النظم المتبعة فى الأدب القديم الملتزم الكلاسيكى (Classique) .

الإسبانية ، ولكن اللغة العربية ما برحت تمد معجمنا بما ينيف عن ربع مفرداته ، كما أن أنوار آدابها ما فتئت تلهب مخيلاتنا بأشعتها ، وتُسَعِّر دماءنا بحرارتها ، دافعة بنا إلى مجازفات تنطوى على جِنَّة . تراها ماثلة أى مثول فى حكايات « دون كيشوت » وأضرابه من الفرسان ، وقد تأثر جل أدبنا الروائى وشعرنا بما اندمج فيه من الأسلوب العربى المحض ، حتى إن أوزان التفاعيل الثمان ، هى فى الأصل بحر عربى اتخذه شعراؤنا ونظموا به على قافية واحدة ، تتكرر فى جملة الأبيات على نحو ما هو مألوف فى الشعر العربى .

ثم قال : ويتعذر علينا - نحن الإسبانيين - إتمام بحث فى آداب لغتنا إن لم نستعن بلغة المعتمد وأبى البقاء ، ونستعن بالمخطوطات العربية المبعثرة فى أنحاء العالَم . وإنك لتجد فى جميع الآثار التى خلّفها كتّابنا الأقدمون مسحة انتقادية هى أثر المعارف العربية الباسطة نورها على اللغات الحديثة ، منذ أنشأ « الدون خوان مانويل » كتابه المسمى » كونده لوكانور » إلى أن ألّف « روخاس » كتابه « كالستنيا » .

وليست جميع القصائد المجموعة فى كتاب « الأغانى الإسبانية » لمختلف الشعراء ، سوى انتحال ما فى الدواوين الشرقية من شعر ، فإنك ترى ناظميها يرافقون فى أناشيدهم الإيقاع المتكرر فى ألحان « الرباب » .

ليس فى طاقتنا - معاشر الأندلسيين المؤمنين بالنصرانية - أن نجحد دين أسلافنا المسلمين ، فلئن كان الأول دين سرائرنا ، فالثانى ما برح نتاج خيالنا القومى المزدان ببدائع التصور ، وإننا على رغم لباسنا الحديث ، وإهمالنا لغة أسلافنا العرب ، ما نزال أحفاد أولئك البدو الذين تعوّدوا فى وحشة الصحراء أن يخاطبوا الله ، وهم قعود أمام مضاربهم المنسوجة بوبر الإبل ، ولو نزعنا بعض الكلس عن جدران جلّ كنائسنا لألفينا تحته لمعاً مذهَّبة لاسم « الله » الأقدس ، محفورة بحروف كوفية ، ولو خدشنا بالأظفار بشرتنا الأوروبية الصفراء لبرز لنا من تحتها لون بشرة العرب السمراء . إن قوميتنا الغربية هى

العَرَض الظاهر ، أما القومية الشرقية فهى حقيقتنا الخالدة ، وما كان عامة ثوراتنا الأدبية القديمة والحديثة فى الغالب غير أثر الروح العربى الذى يطفر من سويداء قلوبنا محتجاً ناقماً ، لأن ابن الصحراء المتمرِّد الحر الذى تعوَّد الهواء الطلق تحت نور الشمس ، لا يقوى على الحياة خلف القضبان المتراصة فى الأقفاص المظلمة المثقل جوها بكثافة القواعد المنطقية والمناهج اللغوية .

إن « غونغورا » أصفى شعرائنا روحاً يشبه كبار الشعراء فى بلاط الأمويين فى قرطبة ، وإن الطريقة العربية لتملك عليه أقطار نفسه .

إن تأثير الشعر العربى فى الشعر الإسبانى والإيطالى والألمانى ، وفيمن حملوا لواء الرومانطيقية لعظيم الشأن ، وإن التأثر بالأدب العربى البادى فى آداب اللغة الإسبانية ظاهر فى أناشيدهم الشعبية التى تمثل نفس أمته الشاعرة ، تستشف من خلالها إخاء الأمتين ، وإن النشيد الغرناطى لشديد الشبه بالنشيد البغدادى [1] .

وقال « سيدليو » : ومما ساعد عرب الأندلس على بلوغ شأو العظمة اتساع نطاق العلوم والفنون والفلاحة والصناعة عندهم ، وقد ذاقوا كلهم لذة المعارف . وتنافسوا فى ابتكار ما يمتازون به . والشعر يرفع من أقدار نفوسهم ، وكان على القضاة أن يتقنوا صنوفاً من العلم حتى يحلوا من الناس محل التجلّة والكرامة [2] .

ويقول « بالستر » المؤرخ الأسبانى : وقد أولع العرب - من ألوان الأدب - بالشعر الغنائى والقصة . والمثل فى قوالب حكايات قصيرة .

* * *

---

(١) محمد كردعلى - فى الإسلام والحضارة العربية : ٢٤٥/١ - ٢٥٠ (بتصرف) .

(٢) من الأسف أن الفنانات كن كذلك والمغنين (المسمّعون) فكان لهم من مهابة علومهم ما يجعل شططهم له شبه حصانة تتكسر عليها سهام الناقدين .

● العرب رواد الغرب فى كل فنون الأدب :

قال « چوستاف لوبون » : إن بعض شعوب أوروبا لم تكن تعرف واحداً يرفع رأسه بقصيدة من الشعر ، والبقية مَن قال شعراً ساقه أغنية عامية حتى فتح العرب الأندلس والبلاد اللاتينية فلقنوهم الشعر معنىً ومبنىً وخيالاً .. فأخذوا عن العرب ما وا ءم طباعهم ، وعالج العرب جميع ضروب الأدب كالملاحم والحب والفروسية ، ما عدا شعر الملاحم ، وأحرزت الوقائع العجيبة التى كانت تتخلل قصصهم موقعاً عظيماً فى النفوس ، فكانوا وهم الفنانون المنقطع نظراؤهم يزينون كل ما يمسونه بتصوراتهم الباهرة ، واخترعوا فى إسبانيا قصص الفروسية .

وكانت القصائد التاريخية ، والمواليا الإسبانية ، تقليداً ومحاكاة ، أو مترجمة عن العربية ، تذكر فيها الأعياد والمواسم ، وألعاب الخاتم ، وصراع الثيران ، ورقص الفرسان ، ولم يبتكر الإسبانيون شيئاً فى هذا المعنى قبل القرن الخامس عشر الميلادى ، وهذا الظرف هو الذى جعل لعرب إسبانيا شهرة فى كل أوروبا .

* * *

الخاتمـــة

فى هذه الدراسة تناولنا فى الفصل الأول تحليل « هيربرت سبنسر » لقضية هامة هى أن الدين أساس المدنيات والحضارات منذ كان وراء الحضارة المصرية القديمة ، وهكذا بعد سقوط إيطاليا تحت أقدام القوط فى حربها (٥٣٦ - ٥٥٣ م) لم تستعد مدنيتها إلا بعد أن أصدر چستنيان فى عام ٥٥٤ م مرسوماً بتكليف الأساقفة تولية شئون الدولة لأصحاب الدين والتقى .

ووضح « چيمس دوس » أن الدين هو المؤثر فى الشعور والإرادة والنزوع ، وأن التربية الدينية يجب أن تطبع منهج الدراسة كله فلا يقتصر على مجرد حصة للدين .

كما تناول الفيلسوف الإنجليزى « برنارد شو » تأكيد سمو التشريع الإسلامى على كل تشريعات الأرض وأنه هو الحل الوحيد لمشكلات البَشر .

وأكد المستشرق الألمانى « جولد زيهر » أن مبدأى الإجماع والقياس فى أصول الفقه الإسلامى احتويا ينبوع القوة التى جعلت الإسلام يتحرك ويتطور بكل حرية .

وأضاف المؤرخ الإنجليزى « ويلز » أن أوروبا مدينة للإسلام بالجانب الأكبر من قوانينها الإدارية والتجارية .

وأكد المؤرخ الفرنسى ذلك بتقريره أن قانون « نابليون » منقول عن شرح الدردير على متن خليل فى الفقه المالكى ما عدا النظام الربوى وقانون الحدود والقِصاص والتعزير فى الإسلام .

ومن ثَمَّ أصدرت المؤتمرات القانونية توصياتها للشعوب بجعل الإسلام مصدراً

رئيسياً لتشريعاتها كمؤتمر « لاهاى » فى هولندا سنة ١٩٣٧ ، ومؤتمر المحامين الدولى بلاهاى أيضاً سنة ١٩٤٨ ، وكان قد اشترك فيه ممثلو ٥٣ دولة .

وأكد مسيو « رينيه ميليه » فى مؤتمر إفريقيا الشمالية المنعقد فى باريس أن الإسلام والمدنية الحديثة يتوافقان ولا يختلفان ، ولهذا فهو ينتشر فى آسيا وإفريقيا ، دون غيره ، لا لتخلف تلك البلاد فإنى سأثبت لكم أن الإسلام شرع يطبق العلوم الحديثة ، وقد استطرد فبين عوامل انتشار الإسلام ، وقد سجلنا خلاصة كاملة لهذه الخطبة الرائعة ، وأردفناها بما كتبه « آدم متز » عن منزلة العلماء فى الإسلام وأن علماء العرب وثواره لم يجدوا أمانهم إلا فى رحابه .

وانتهينا فى هذا الفصل إلى بيان المؤرخ الألمانى « ويلز » لحضارة العرب فى الجاهلية ومدنهم الرئيسية على طريق القوافل ومظهر البداوة فى غيرها من مضارب البدو فى الصحارى ، ثم عقبنا عليه بحديث الفيلسوف الإنجليزى « توماس كارليل » عن أثر الإسلام فى حياة العرب ، وأنه أخرجهم من عالم الخمول إلى عالم النباهة والذكر ، ثم حديث الأديب المؤرخ الفيلسوف « درمنجم » عن آثار الإسلام الاجتماعية فى العرب ، فبه تقدمت الأسرة والمجتمع ، وتحسنت الصحة العامة ، وتنظمت أحكام الرق .

وفى الفصل الثانى « المظاهر الحضارية » .

ذكر « جورجى زيدان » ظواهر التمدين وحقيقته وأبرزها التربية والعلم والثروة والصناعة والتجارة ونظام الهيئة الاجتماعية وآدابها .

ثم بيّن « چوستاف لوبون » كيف أن الخُلُق عنصر حضارى ، وأن العرب المسلمين قد غيّروا به شكل الأندلس (إسبانيا والبرتغال) فى بضعة قرون - تغييراً قال عنه الفصيل الورتلانى للچنرال « فرانكو » : إنه لا يزال واضحاً ، فأوجه الشبه بين عموم الشعب الإسبانى والمغرب كثيرة أخذ يسردها له . وقد حكى ذلك الحديث للأمير عبد الكريم الخطابى قائد ثورة الريف على إسبانيا ، وكنت بمجلس الأمير أسمع ذلك - رحمهما الله .

وقد شمل هذا التغيير العلوم والأخلاق والعادات والصناعات ، وأضاف « سيديو » و « لوبون » وغيرهما أن العرب فى ذلك الوقت كانوا أرقى من المستعربين الأسبان والبرتغاليين .

وفى الجامعة الأمريكية بمصر ، ألقى الأستاذ « يهودا » من جامعة مجريط محاضرة جاء فيها أن الناس أخذوا يدركون الآن أن أوروبا - فى القرون الوسطى - كانت مدينة إلى الحضارة العربية ، وقد اكتشفوا مئات الكلمات الحضارية فى اللغات الأوروبية من أصل عربى .

وقال « دوزى » : إن العرب حققوا بادىء ذى بدء مقالة الثورة الفرنسية ، وهى : الحرية والمساواة والإخاء ، ولقد كان البدوى - أى المسلم فى إسبانيا - يستمتع بحرية ليس أوسع منها على الأرض ، بحيث لو قرنت معها أصولنا فى الحرية الراقية إلى أبعد الغايات لكانت تسجل أن حرياتنا تشبه قواعد الاستبداد إلى جانب حرية البدوى المسلم .

وقال آخر : وهذا الفهم العربى للحرية والإمارة خير من مفهومها الديمقراطى الغربى الذى يهدم أركان المجتمع الأوروبى .

وكانت بغداد والعواصم الإسلامية هى المراكز العظيمة للعلم ، بينما عواصم أوروبا أشبه بقرى لا علم فيها ولا عمران ، وكان معظم سكان إسبانيا الإسلامية يقرءون ويكتبون بينما أوروبا - حتى طبقاتها العليا - أميين عدا قِلّة من الشمامسة جعلوا الكتابة صناعة لهم .

وظل الإسبان النصارى يستعملون النقود الإسلامية أربعة قرون .

وذكر « چوتيه » : أن العرب فى الأندلس اخترعوا أشياء لا بأس بها - بالقياس إلى عصرهم - وعرفوا طريقة عمل الجليد الصناعى الذى لم تعرفه أوروبا إلا فى النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادى ، وقال : إن العرب علّمونا صنع الكتاب وعمل البارود وإبرة السفينة - وأدخلوا على أوروبا صناعة الورق من القطن ، والورق الرخيص الثمن .

ثم ذكرنا ما تناوله « رامبو » عن الزراعة وإيجادهم علم النبات والمستحضرات والأدوية المأخوذة من الزروع والأعشاب .

وأفصح « سنيوبوس » عن مهارة العرب في تنظيم الرى وحفر الطرق وعمل مزارع تجريبية لتنمية النبات ، وكيف أن أمدوا أوروبا بكثير من نباتات المشرق لم تكن موجودة كالأرز والعنب والورد الأزرق والأصفر والياسمين والقطن والقصب .

وفى مجال الصناعة تكلم « سيديليو » فقال : لقد برع العرب فى جميع الفنون الصناعية من سباكة ودبغ ونسيج وجلاء للأسلحة ونقاشة وغيرها ، ويؤيد علو كعبهم فى هذه الفنون سيوفهم الباترة ودروعهم الخفيفة الصلبة ، وبُسطهم ذات الوبر ، ومنسوجاتهم من الصوف ، والحرير ، والكتان .

وأضاف « چوستاف لوبون » : أنه لا يرى الباحث في مختلف الصناعات العربية أية صلة ظاهرة بمصنوعات آية أمة أخرى ، فالإبداع فى مصنوعاتهم تام وواضح لم يُسبقوا إليه .

وفى الفنون يقول « لركيه » : إن العرب تجاوزوا حد الإبداع والبراعة إلى الابتكار ، فتحولت الفنون إلى فنون إسلامية ، ولما للموسيقى والغناء من تأثير كثر فيها التأليف إنتاجاً كالأغانى ، أو نقداً وبيان الحكم الشرعى كالذى جاء فى « إحياء علوم الدين » .

وقد أفرد « جورجى زيدان » لتخطيط المدن الإسلامية كالقيروان التى اختطها عقبة بن نافع فى تونس ، والكوفة والبصرة اللتين اختطهما سعد بن أبى وقاص ، والفسطاط التى أنشأها عمرو بن العاص فى مصر ، وبغداد التى أنشأها المنصور سنة ١٤٥ هـ وجعل حواليها قطائع لحاشيته وأتباعه .

وكانت الأعياد من مظاهر التحضر ، ولكن زاد المسلمون فى عددها ، وقد أفاض فى الكتابة عنها « آدم متز » أستاذ اللغات الشرقية بجامعة بال بسويسرا .

وختم الفصل بحديث « آدم متز » عن بروز الاهتمام بالألقاب والتكلف فى أساليب المكاتبات فى القرن الرابع الهجرى ، فكان يقال : مولانا وسيدنا للوزراء والكبراء .

وفى الفصل الثالث « تحضير الإسلام للغرب » .

تناول « لافيس » و« رامبو » ذكر حال الغرب ، وقالا : إن إنجلترا كانت فى القرن السابع الميلادى - إلى ما بعد العاشر - فقيرة وحشية ، تعيش فى مساكن ضيقة المنافذ . واصطبلاتهم وحظائرهم بلا نوافذ . يعيشون فى أكواخ ، وأسلحتهم عند رءوسهم إذا باتوا فى قاعة الاجتماعات البسيطة .

وكانت البلاد كثيرة المستنقعات كسائر أوروبا ،ولم تعرف أوروبا البُسط قبل الإسلام ، بل كانوا يفترشون القش ، وأسِّرتهم مجرد أكياس من القش ووسائد من القش ، وكان الطب فى أيدى الدجالين وبزيارة الأضرحة .

وقال « لوبون » : كان أثر المسلمين فى المشرق واضحاً فى الدين ، أما فى الغرب فكان فى الفنون واللغة بنسبة ضعيفة ، أما تأثيرهم بتعاليمهم العلمية والأدبية والأخلاقية فكان عظيماً - إذا استثنينا الأندلس - فكان أثر العرب شاملاً زاهراً .

وفى سنة ١١٣٠ م أنشئت فى طليطلة بالأندلس مدرسة للترجمة بعناية « ريموند » رئيس الأساقفة فترجم إلى اللاتينية أشهر مؤلفات العرب ، وعندئذ عرف الغرب عالماً جديداً .

وقد عدَّ « لكلرك » فى تاريخ الطب العربى ٣٠٠ كتاب لشعوب لم تكن تعرف حتى اللغة اليونانية التى امتلك العرب ناصيتها منذ القرن التاسع الميلادى .

وقال « دوسن » : إن المدنية الغربية كلها مدينة للمسلمين بميراث حكمة الأقدمين ، وإن فتوحات العرب فى إمبراطورية الإسلام من القرن السابع إلى القرن الخامس عشر لتُعَد إحدى عجائب التاريخ ، ومن أشد العجب سرعتهم

البالغة فى تحصيل العلوم اللازمة لعظمتهم حتى وصلوا إلى مستوى عالٍ فى مائة سنة ، بينما نرى الجرمانيين لما فتحوا الإمبراطورية الرومانية قضوا ألف عام قبل أن يقضوا على التوحش ، وينهضوا لإحياء العلوم .

وقد تناول « لوبون » الإجابة عن مشكلة فى السؤال : « كيف واجه العرب المدنية اللاتينية » فى كتابه « حضارة العرب » ، فنسبها إلى محيطهم الإسلامى الجديد ، وإلى ذكائهم الحاد ، وإلى سابق رقيهم الفكرى والأدبى .

ثم تناول المسيو « رينيه ميليه » حضارة الإسلام فى الأندلس التى ضرب لعمرانها مثلاً قرطبة ، التى بلغت نصف مليون فى العصر الإسلامى لهم من المساجد ثلاثة آلاف ، وعدد منازلها ١١٣ ألف ، عدا ٣٠٠ حمام عام ، لهم من الخلق ما تجسده وصية « عبد الرحمن الأول» أحد خلفاء قرطبة ، وذكرنا نصها ، ولقد فتح العرب كل الأندلس فى عام أو عامين فاستقر حكمهم لها ثمانية قرون ، فإذا أضيف إلى ذلك الحكم التركى لأوروبا ثلاثمائة عام كان حكم الإسلام للعالم ألف سنة تقريباً ، وهى مدة تناهز عمر الدولتين اليونانية والرومانية ، وكان فى هذا الفتح تلاق بين الإسلام والنصرانية من مظاهره استشارة أمراء النصارى أطباء المسلمين بشأن مرض أولادهم ، وكانت غرناطة زهرة أوروبا وممالك المسلمين واحات الحرية فى أوروبا والعالم كله ، ولم يعكر ذلك سوى استيلاء الإسبانيين على غرناطة سنة ١٤٥٣ م وتعصبهم الحاقد .

ويلاحظ أنه فى نفس العام قامت فى شرق أوروبا الدولة العثمانية حيث استولى الأتراك على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م .

وكان انتقاص الغرب لفضل العرب وسبقهم فى العلوم ونسبة ذلك إلى الأوروبيين مثل « روجر بيكون » أمراً استنكره البحاثة ريڤولت وسيديو وكارادانو وسميث وغالينو وداربر وبلاسكوا بيانيز ، وإلى جانب نسب إنتاج المسلمين إلى الغربيين كانت سياسة التعتيم والتجهيل بآثار العرب فى تاريخ الحضارة .

وكان من آثار الحقد عملية إكراه المسلمين على التنصر وإلا فالقتل أو التهجير ، فكانت الكوارث التى لحقت الغرب إثر غروب شمس الإسلام عن أوروبا بعامة ، - والأندلس بخاصة - كما وضح ذلك « رينيه » .

وممن اهتموا بتصوير الحقد الصليبى على المسلمين وحضارتهم « لوبون » ، و« هركولانو » - لدرجة إحراق الكتب العربية تماماً كالمغول وجمال عبد الناصر فى مصر فى عملية تصفية الثقافة من الفكر الإسلامى الذى يمثله حسن البنا وابن تيمية .

وفى ختام الفصل تحدث « چون هرمان راندل » فى تكوين العقل الحديث فكان مما قاله : إن نهضة القرن الثانى عشر فى أوروبا تعنى احتكاكها بالعالم الإسلامى والثقافة القديمة التى حافظ عليها ، وعن طريق إسبانيا جاءت أول معرفة بمؤلفات أرسطو الكبيرة ، ولكن المسلمين أنقذوا من العالم القديم شيئاً كان أرسطو عاجزاً عنه كل العجز وهو العلم الرياضى .

وعلى الإجمال كان العرب يمثلون فى القرون الوسطى التفكير العلمى والحياة الصناعية العلمية اللذين تمثلهما فى أذهاننا اليوم « ألمانيا الحديثة » .

ثم قال : ولقد شهد القرن الثانى عشر عملية التمثيل الكبرى لهذا العلم ، وتم ذلك فى مركزين رئيسيين : صقلية والأندلس حيث تلاقت الثقافتان المسيحية والإسلامية .

كما كان ابن الهيثم أكبر رواد البصريات التى قامت عليها المدرسة الغربية الأفلاطونية .

وأضاف : « جب » : إن من المتفق عليه أن الملاحظة التفصيلية الدقيقة التى قام بها الباحثون المسلمون هى التى ساعدت على تقدم المعرفة العلمية مساعدة مادية ملموسة .

وفى الفصل الرابع « الإسلام والعلم » ..

سجل « بريفولت » الإنجليزى أن المسيحيين تعلموا فى القرن التاسع الميلادى

كثيراً من علماء المسلمين ، وأن إيطاليا لم تكن مهداً لحياة أوروبا الجديدة ، بل إسبانيا (الأندلس) ، وقد شهد رئيس دير كلونى طلاب فرنسا وإنجلترا وألمانيا يفدون أفواجاً إلى المراكز العلمية العربية دون الأوروبية (كما يفعل المسلمون اليوم فى ديار الغرب) .

ويقول « كازانوفا » : أى قسيس يجرؤ أن يقول كلمة النبى محمد التى معناها : « فضل العلم خير من فضل العبادة » ؟

وانتقد « إيتين دينيه » افتخار الأوروبيين بالعالم « باستور » الفرنسى ، وقال : إن جابراً والرازى هما المؤسسان الحقيقيان لعلم الكيمياء بفضل ما كشفاه من طرق التقطير من الكحول ، ومن حمض النتريك ، وحمض الكبريتيك وغيرها .

وقال « جورج سارتون » : لقد شهد النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى بزوغ الأيديولوچية العربية فى الرياضيات ، بعد أن كان هذا العلم مقصوراً على مجرد النقل والترجمة .

كما تحدَّث « روم لاندو » عن الملاحة ، فقال : إن قائد « فاسكو دى جاما » إلى الهند هو أحمد بن ماجد الذى وضع عدة كتب عن الملاحة فى البحر الأحمر والخليج الفارسى والمحيط الهندى ومياه آسيا الجنوبية .

أما عن الجغرافيا فتحدث فيها « جوتيه » و« تشارلس سينوبوس » و« ريسون » و« دراپر » و« سيديو » و« فازيلييف » وبينوا سبق الإدريسى الجغرافى وسبق اكتشاف كروية الأرض ، وقياس حجمها ، واختراع الاسطرلاب ، والعرب كانوا هم أول مَن حسبوا الحركة المتوسطة للشمس فى السنة الفارسية وأول مكتشفى جزيرة كريت وجزر الأرخبيل .

وتحدث « مورنوا » عن تقدم الطب العربى ، كما تحدث « سارطون » عن تقدم العرب فى علم النبات ، و « روم لاندو » عن تقدم العرب فى علم الفلك والجبر والفرائض - وهو توزيع أنصبة الميراث رغم اختلافها ، فمنها ثلث وربع

وثمن ونصف وثلثين - والوارثون بالتعصيب ، ومَن يُحجبون من الميراث فى أحوال مختلفة ، ومَن لا يسقطون بأى حال فى الميراث .

وتحدث « درابر » عن سبق العرب فى الاختراع ومنهج البحث الناشىء عن الإسلام ولخدمة شعائره ، ثم فى الختام للفصل اشترك هؤلاء النصارى الأحرار فى بيان أن الإسلام يكوِّن العباقرة ، وأن حضارة الغرب مصيرها الإفلاس ، وعن مظاهر وأسباب التفوق العربى كرحلاتهم وحملاتهم العلمية ودور المسجد والمكتبات فى النهوض بالعلوم والعلماء والطلاب . ودور الحروب الصليبية فى تمدين الغرب وتحضيرهم .

وفى الفصل الخامس « دين نهضة وأدب » ..

تحدثت الدكتورة « لورانا جليرى » عن أن الإسلام ضد الجمود فأساسه التأمل العقلى وهو دين ودولة بكل ما فى الكلمة من معنى .

ومن سوء الحظ أن الإسلام بعد أن كان كنزاً عربياً ، وبعد أن عرَّب العلوم الإغريقية سقط فى أيدى الأتراك والتتار والمغول الذين كانوا أجراء لدى العرب ثم استولوا على العالَم الإسلامى وتبنوا دينه دون أن يفهموا روحه الداخلية ، فأخمدوا عقول رعاياهم ، طبقاً للمبدأ : الشعب الجاهل أسلس قياداً من الشعب المتعلم .

وتحدث « كارل بروكلمان » و« باول شمتز » عن حركات التجديد الدينى كظاهرة للثورة على الجمود ، كحركة محمد بن عبد الوهاب فى الجزيرة العربية ، وتأسيس حركة الإخوان سنة ١٩١٠ قبل حركة الإخوان التى أنشأها حسن البنا ، وكيف خرجت الوهابية إلى السودان ، وأفرزت الحركة السنوسية عام ١٨٤٠ بالجزائر ثم بقية شمال إفريقيا ، وعن السنوسية ظهرت حركة الإخوان الدركوية والإخوان المندية .

ثم ذكر « شمتز » حركة التجديد بين الشيعة على يد الشيخ أحمد العاصى (المتوفى سنة ١٨٢٦) متزاملة مع الحركة السنوسية ، وكلاهما يعتنق مبدأ

الجهاد المسلح الذى استخدمته الوهابية بالسعودية والمهدية فى السودان ، ثم الإخوان المسلمون فى فلسطين والقنال بمصر ، ولهذا عمل الإنجليز على إنشاء حركات تجديدية عكسية ترفض أسلوب الجهاد ، فنشأت البابية (١٨٤٤ م = ١٢٦٠ هـ) وتبعتها البهائية التى قاومها الإخوان المسلمون بمصر منذ الثلاثينات وحتى خفت صوتها فى السبعينيات ، أما عن نهضة الأدب الحديث فتحدث فيه « بروكلمان » و « أميليو چيرسيه چونس » و« فرانسيسكو فيلاسباسا » من شعراء الإسبان الذى أثبت أن الشعر العربى كان ذا تأثير فى العالم كله ، فضلاً عن إسبانيا ، وقال « چوستاف لوبون » : إن بعض شعوب أوروبا لم تكن تعرف واحداً يرفع رأسه بقصيدة من الشعر حتى فتح العرب الأندلس وأوروبا فلقنوهم الشعر معنىً ومبنىً وخيالاً ، فالعرب رواد الغربيين فى كل فنون الأدب ، كما هم روادهم فى كل فنون العلم وشُعَب الحضارة .

ولله الأمر من قبل ومن بعد ، وأسأل الله للعالَم بعثاً حضارياً كالذى ذكرناه بلا صراع عنصرى أو طائفى . فهو ولى التوفيق والرشاد .

* * *

ثبت المراجع

الإسلام دين عام خالد : محمد فريد وجدى .

الإسلام قوة الغد العالمية : باول شمتز - مكتبة وهبة .

الإسلام وتحديات العصر .

الإسلام والحضارة العربية : محمد كردعلى .

الإسلام والعرب : روم لاندو - تعريب منير بعلبكى وزميله .

أشعة خاصة بنور الإسلام : أتيين دينيه .

بناء الإنسانية : بريفولت .

تاريخ الحضارة : تشارلس سينوبوس .

تاريخ الارتقاء العقلى فى أوروبا : درابر .

تاريخ الشعوب الإسلامية : كارل بروكلمان - تعريب منير بعلبكى ونبيه أمين فارس .

تاريخ العالم : السير چون . أ . هامرتن ، نشر النهضة المصرية .

تاريخ العرب فى إسبانيا : خالد الصوفى - المطبعة التعاونية .

تاريخ المسلمين فى إسبانيا : دوزى .

التحديث فى نظر الإسلام : عكرمة - سعيد صبره - القدس .

حياة محمد : درمنجم .

التربية والفطرة (مقال بالقبس) : عجيل النشمى .

الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى : آدم متز .

خطبة لمسيو رينيه ميليه : تلخيص مجلة المنار .

خلاصة تاريخ العرب : سيديو .

العرب والتجارة : ريسون .

العرب والروم فى فجر الإسلام .

علم التاريخ : هرنشو - تعريب عبد الحميد العبادى .

العلوم عند العرب والمسلمين : قدرى طوفان .

محمد رسول الله : أتيين دينيه .

المستشرقون والإسلام : لزكريا هاشم .

معرض السلطان سليمان القانونى (مقال بالمجتمع) : بلندر الحيدر .

المنار (مجلة) : السيد رشيد رضا .

منهج التربية الإسلامية : محمد قطب .

نقد مستقبل الثقافة فى مصر : سيد قطب .

هذا هو الإسلام : محمد العماوى .

* * *

محتويات الكتاب

الصفحة

الفصل الثانى : المظاهر الحضارية
(٢٩ - ٦٢)

الفصل الثالث : تحضير الإسلام للغرب
(٦٣ - ٨٦)

الصفحة

الفصل الرابع : الإسلام والعلم
(٨٧ - ١٣٨)

الصفحة

الصفحة

الفصل الخامس : دين نهضة وأدب
(١٣٩ - ١٦٣)

* * *

تعرف بمؤلفات الكاتب

يسرنا حين نقدم هذا الكتاب للقراء أن نعرِّف بالمؤلف . وهو فضيلة الدكتور : « عبد المتعال محمد الجبرى » ، وهو حاصل على ليسانس فى اللغة العربية وآدابها والعلوم الإسلامية من كلية دار العلوم بالقاهرة التى أنشئت عام ١٨٧١ لتخريج المعلمين الأكفاء . ثم حصل على دبلوم التربية وعلم النفس من كلية التربية جامعة عين شمس ، ثم حصل على دبلوم الدراسات العليا فى النحو ، فشهادة الماجستير ثم الدكتوراة فى العلوم الإسلامية - تخصص التاريخ والحضارة الإسلامية - من كلية دار العلوم ، وعمل بالتدريس ثم تفرغ للدعوة الإسلامية وهاجر إلى أمريكا الشمالية ، وقدم للمسلمين من المؤلفات ما أحس بحاجة المسلمين إلى تأليفه ، وكان له فى كل بحث قدَّمه مزايا خاصة ، وهى مجموعة جديرة بأن يقتنيها كل بيت حيث تكوِّن وحدها مكتبة إسلامية متكاملة كحد أدنى لمكتبة المنزل أو المسافر ، وفيما يلى أهمها :

أولاً : فى العقيدة

١ - المصطلحات الأربعة بين الإمامين : المودودى ومحمد عبده .

٢ - الضَّالُّون كما صوَّرهم القرآن .

٣ - حوار مع الشيعة حول الخلفاء الراشدين .

٤ - عقيدة الإسلام وعباداته بأقلام فلاسفة النصارى .

٥- جنوح إدوارد عطية فى مفاهيمه الإسلامية .

٦ - غرائب ابن حزم فى العقيدة وأصول الفقه .

ثانياً : فى التفسير وأصوله

٧ - شطحات مصطفى محمود فى تفسيراته العصرية .

٨ - نظرات فى سورة التكاثر .

٩ - نبأ ابنى آدم .. بذرة التشريع الجنائى فى الإسلام .

١٠ - تأملات فى سورة القمر .

١١ - نظرات فى سورة التحريم .

١٢ - نظرات فى سورة الماعون والعلق .

١٣ - لكل جواد كبوة : خواطر الشيخ الشعراوى فى تفسيره للقرآن .

ثالثاً : فى الفقه وأصوله

١٤ - الناسخ والمنسوخ بين الإثبات والنفى .

١٥ - النسخ فى الشريعة الإسلامية كما أفهمه .

١٦ - لا نسخ فى القرآن .. لماذا ؟

١٧ - لا منسوخ بآية السيف .

١٨ - جريمة الزواج بغير المسلمات فقهاً وسياسة .

١٩ - فقه الأخت المسلمة فى الطهارة والحيض .

٢٠ - فقه الأخت المسلمة فى الصيام والتراويح والاعتكاف .

٢١ - فقه الصيام فى سؤال وجواب .

٢٢ - زبدة الكلام فى معرفة أول وآخر رمضان .

٢٣ - الذكر وأثره فى تكوين الشخصية الإسلامية (الطبعة الثانية مزيدة) .

٢٤ - الأضحية .. أحكامها ودورها فى التربية الاجتماعية .

٢٥ - الصلاة على النبى ﷺ وأثرها فى تكوين الشخصية الإسلامية .

٢٦ - حكم التصوير والنرد والشطرنج .

٢٧ - غرائب ابن حزم فى قضايا الفقه .

رابعاً : فى علوم السُنَّة

٢٨ - حجِّية السُنَّة . ومصلحات المحدِّثين وأعلامهم .

٢٩ - المشتهر من الحديث الضعيف والموضوع والبديل الصحيح .

٣٠ - غريب كلمات صحيح البخارى .

خامساً : فى التربية الإسلامية

٣١ - المرأة فى التصور الإسلامى .

٣٢ - المسلمة العصرية عند باحثة البادية .

سادساً : فى التاريخ السياسى و الإسلامى

٣٣ - نظام الحكم فى الإسلام - بأقلام فلاسفة النصارى .

٣٤ - لماذا اغتيل الشهيد حسن البنا ؟

٣٥ - الناصرية فى قفص الاتهام .

٣٦ - الطراز الناصرى والاتجاه الإسلامى .

٣٧ - معجزة فتح مصر .

٣٨ - أصالة الدواوين والنقود العربية .

٣٩ - مقتل العرب فى صراعاتهم منذ فجر التاريخ .

٤٠ - السيرة النبوية وأوهام المستشرقين .

٤١ - مقدمات ظلال السيرة النبوية .

٤٢ - نسيج وحده : عمير بن سعد .

وتطلب من الناشرين والموزعين بالقاهرة : مكتبات : وهبة ، والاعتصام والصحوة و « دار التوزيع والنشر الإسلامية » .

وفى جيرسى سيتى بأمريكا . المركز الإسلامى لجيرسى سيتى ، ودار الكتاب الإسلامى العربى الأمريكى .

* * *

رقم الإيداع ٩٣/٥٤٩٢

ISBN 977-225-031-4

طبع بالمطبعة الفنية ت ٣٩١١٨٦٢

كتب للمؤلف

فى الفقه وأصوله :

• الناسخ والمنسوخ .. بين الاثبات .. والنفى	مكتبة وهبة
النسخ فى الشريعة الاسلامية .. كما أفهمه	الطبعة الثانية
• لانسخ فى القرآن .. لماذا ؟	مكتبة وهبة
• جريمة الزواج بغير المسلمات فقها وسياسة	مكتبة وهبة

فى علوم السنة

• حجية السنة .. ومصطلحات المحدثين واعلامهم	مكتبة وهبة
• المشتهر من الحديث .. الموضوع .. والضعيف والبديل الصحيح	مكتبة وهبة

فى التفسير وأصوله :

• الضالون كما صورهم القرآن الكريم	مكتبة وهبة
• شطحات مصطفى محمود فى تفسيراته العصرية للقرآن	الاعتصام
• المصطلحات الأربعة بين المودودى ومحمد عبده	الاعتصام

فى التربية الاسلامية :

• المرأة فى التصور الاسلامى	مكتبة وهبة
• المسلمة العصرية عند باحثة البادية	دار الأنصار

فى التاريخ السياسى والاسلامى :

• نظام الحكم فى الاسلام بأقلام فلاسفة النصارى	مكتبة وهبة
• لماذا اغتيلا الشهيد حسن البنا ؟	الاعتصام
• الناصرية فى قفص الاتهام ؟	الاعتصام
• نسيج وحده : عمر بن سعد	دار اليقظة — آنديانا بلس بأمريكا

* * *

قريبا ان شاء الله

• توالى مكتبة وهبة نشر مؤلفات الباحث الكبير الأستاذ عبد المتعال الجبرى . وهو غنى عن التعريف . ومن بينها سلسلة « الاسلام بأقلام فلاسفة النصارى » :

• ذاتية الاسلام ومستقبله

• عقيدة الاسلام وعباداته

• الدين والسياسة

وفى التفسير:

• تأملات فى سورة يوسف

• تأملات فى سورة الملك

• تأملات فى سورة القمر

• لا منسوخ بآية السيف